هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره

ياسين عايش خليل *

ملخـص

يهدف هذا البحث إلى استجلاء أنظار مجموعة من الشعراء العباسيين في الرشيد، فقد كان قصره في بغداد أو في الرقة مقصد عدد كبير من الشعراء المعاصرين له، فأشادوا بتدينه وبشجاعته وانتصاراته على أعدائه البيزنطيين، وخصومه في الداخل، كما أشادوا بحنكته ودرايته في شؤون السياسة وفي التأليف بين رعاياه، وأثنوا على سخائه الكبير، وعلى رفعة نسبه إلى البيت النبوي، وكرروا القول في ذلك كله، وبنوا قصائدهم بناء يتوافق والمعاني السامية التي نعتوه بها، إلا ما كان من التزام بعضهم بالمنحنى التقليدي إرضاء لذوقه في نظم الشعر.

وقد كان الجانب الأكبر من الشعر في المصادر التي وقف عليها الباحث في غرض المديح، وإن لم يسلم من انتقاد بعض الشعراء حين عهد لثلاثة من أبنائه بولاية العهد، أو لإهماله في بعض شؤون الرعية.

وحين توفي الرشيد بكاه بعض الشعراء في شعر لم يصل في الجودة والإتقان حد ما نظموا في مدحه، وفي تصويرهم لانتصاراته على الروم.

المقدمـة

هارون الرشيد في مصادر التاريخ والسير وتراجم الرجال والأدب رجلان: متدين عابد حاج غاز، وعابث طالب متعة يجدها في أحضان جواريه، وفي لياليه التي كان فيها منكباً على مجالس الخمرة والغناء والقصف، تستوي في ذلك الأخبار المتناقضة الكثيرة المتناثرة في تاريخ الطبري ومروج المسعودي، وأغاني أبي الفرج الأصفهاني وتاريخ الخطيب البغدادي، وتاريخ ابن عساكر، ووفيات ابن خلكان، وسير الذهبي، وتاريخ السيوطي[(1)]... الخ، فالناظر في هذه الكتب وأمثالها يجد الأخبار عن خشوعه وورعه وتدينه ومحبته للعلماء، ومجالسته لهم تساق إلى جانب الأخبار عن عبثه ولهوه.

وتفرد ابن خلدون بتفنيد أقوال القائلين بعبث الرشيد في كلام طويل، نجتزئ منه قوله التالي حسب، وقد ساقه في نفي أن يكون الرشيد قد عاقر الخمرة: "فحاشى ، ما علمنا عليه من سوء. وأين هذا من حال الرشيد، وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض، وابن السماك، والعمري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة، والمحافظة على أوقات الصلوات، وشهود الصبح لأول وقتها... وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقربه من سلفه المنتحلين لذلك... وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيه معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليده الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملّة"[(2)].

هذا البحث:

يهدف هذا البحث إلى استجلاء أنظار الشعراء الذين عاصروا الرشيد فيه، فقد كان قصره في بغداد، أو في الرقة، مقصد شعراء كثيرين: "فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس، وأبي العتاهية، والعتّابي، والنّمري، ومسلم بن الوليد، وأبي الشيص، ومروان بن أبي حفصة، ومحمد بن مناذر"[(3)]، على ما قال الثعالبي في يتيمته، و"إنه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء، والفقهاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب

* كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2004/3/29، وتاريخ قبوله 2004/7/25.

الرشيد..."[4]، على ما يقول ابن الطقطقي.

وقد هدانا النظر في المصادر الكثيرة إلى شعراء كثيرين غير أولئك الذين ذكرهم الثعالبي كانت لهم فيه أشعار وهم: إبراهيم الموصلي، وداود بن رزين، وسلم الخاسر، وأَبان بن عبد الحميد اللاحقي، وعبد الملك بن صالح العباسي، والحجاج بن يوسف التيمي، وأبو المعالي الكلابي، وصالح بن عبد القدوس، والعماني الراجز، وأبو الغول، وعمر بن سلمة المعروف بابن أبي السعلاء، ونُصيب الأصغر، والرقاشي، ودعبل بن علي الخُزاعي، وعلي بن الخليل، والعباس بن الأحنف[5].

ومن غير شك ان ثمة شعراء آخرين اتصلت أسبابهم بأسباب الرشيد، ولكننا لم نقف على أشعار لهم فيه، منهم عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي[6]، فقد قيل: إن الرشيد سجنه، فكتب شعراً من سجنه يعاتب فيه أخاً له، لأنه لم يسع إلى تخليصه من سجن الرشيد، غير أن ما وقعنا عليه من شعر لهذا الشاعر يخلو من أدنى إشارة إلى الرشيد[7]. وثمة أشعار منظومة في الرشيد، ولكن قائليها غير مسمين، وسنبين ذلك لاحقاً في عرض الدراسة.

ومما لا ريب فيه أن الأشعار التي قيلت في الرشيد كثيرة، ولو أنها كلها وصلت إلينا لجاءنا شعر وافر غزير، لكن المفقود من هذا الشعر كثير، ولنا على ذلك أدلة كثيرة؛ أكتفي بإيراد بعضها، ففيها فضل كفاية.

1. قال ابن المعتز في طبقاته حيث ترجم لأبي الشيص: "ولأبي الشيص في الرشيد مرثية عجيبة"[8]، ولكنه لم يورد من تلك المرثية العجيبة غير بيتين اثنين قال في عقبهما: "وهي طويلة، ولو ذهبنا نسوق قصائده خرج الكتاب عن حد ما قصدناه، وإنما نأتي بالبيت والبيتين دليلاً على قصيدة مشهورة"[9].
2. وقال ابن المعتز أيضاً: "وكان أبو الشيص أحد شعراء الرشيد ممن قد مدحه مدائح كثيرة..."[10]، والوارد في طبقات ابن المعتز من هذه المدائح الكثيرة لا يعدو بضعة أبيات.
3. وورد في أخبار ابن مناذر في كتاب الأغاني قصةُ نظْم هذا الشاعر لقصيدة في مدح الرشيد مطلعها:

ما هيج الشوقَ من مطوقة

أوفَتْ على بانة تغنينا

ثم أورد أبو الفرج منها بيتاً ثانياً قال في أعقابه: " فأنشده إياها، فلما بلغ آخرها كان فيها بيت يفتخر فيه، وهو:

قومي تميم عنْد السماك لهم

مجد وعز فما ينالونا"[11]

ولم يورد أبو الفرج من هذه القصيدة غير أربعة أبيات.

الدراسات السابقة

عني بعض المحدثين بالتأليف في سيرة هارون الرشيد في كتب مفردة، كالذي صنعه طه الحاجري في كتابه "قصر الرشيد"[12]، وأحمد أمين في كتابه "هارون الرشيد"[13]، وعبد الجبار الجومرد في كتاب بهذا العنوان[14]، وألف عمر أبو النصر كتاباً سماه "الهوى والشباب في عهد الرشيد"[15]، وألف محمد رضوان كتاب "أسرار الأمير العاشق، ليالي هارون الرشيد بين الأسطورة والواقع"[16]. وعني آخرون ممن ألفوا في الشعر العباسي والشعراء العباسيين ببيان صلة من كتبوا عنهم من الشعراء بهارون الرشيد، كالذي صنعه شوقي ضيف في العصر العباسي الأول[17]، ومصطفى الشكعة في "الشعر والشعراء في العصر العباسي"[18]، ونصرت عبد الرحمن في كتابه "شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ" الذي خصص فيه بضع صفحات قليلة للحديث عن بعض الشعر الذي قيل في بطولة الرشيد في محاربة الروم[19]، وإبراهيم الخواجة في كتابه " شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري " الذي أورد في الفصل الثاني من كتابه هذا بعض الشعر العباسي الذي قيل في نظرية العباسيين في حقهم في إمامة الناس وخلافتهم وأنهم أولى بها من الطالبيين[20]، وصالح الشتيوي في بحثه الموسوم بصورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول الذي رسم صورة للقيم البطولية والدينية والإنسانية التي تحلى بها الرشيد في بعض الشعر العباسي[21]، وياسين عايش في كتابه "الشعر في بلاد الشام والجزيرة" الذي أشار إلى بعض صفات الرشيد من خلال حديثه عن الفتن الداخلية في بلاد الشام إبان خلافة الرشيد ومن خلال حديثه كذلك عن الشعر في الصراع بين العباسيين والبيزنطيين في أثناء حكم الرشيد.[22]

ولعل أوسع المؤلفات المحدثة ذات العلاقة التي عنيت باستجلاء صلات علماء اللغة والنحو والشعراء بالرشيد هو الكتاب الذي حمل عنوان "موسوعة هارون الرشيد[23] لمؤلفه سعدي ضنّاوي، فقد جاء هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، حشد فيها المؤلف كلّ ما له علاقة بالرشيد من أخبار وقصص ورسائل، وأثبت جزءاً غير يسير من أشعار الشعراء فيه دون دراسة. وسبق لصاحب هذا الكتاب، الموسوعة – أن جمع ما ورد في المصادر التراثية من أشعار منسوبة إلى الرشيد، وسماه "ديوان هارون الرشيد"[24]، والكتابان بحق جهد ضخم في الرجوع إلى المصادر المختلفة التي كتبت عن الرشيد وعصره عند العرب وكثير من المستشرقين، غير أن أولهما يفتقر إلى غير قليل من المنهجية العلمية، فهو يراكم ما انتزع من المصادر من معلومات عن هارون الرشيد دون دراسة

متأنية، ويخاص إلى استنتاجات وأحكام يغلب فيها الذاتي على الموضوعي. وليس فيه على الجملة بيان لصورة الرشيد في شعر شعرائه. وأما الثاني، فهو كتاب يضم بين دفتيه الأشعار المنسوبة إلى الرشيد، أو الأشعار التي أنشدها الرشيد، وليست من نظمه، ثم أتبع ذلك بجملة فصول نابعة من طبيعة الأشعار التي أوردها في ديوانه، وختم كتابه بأن أورد نماذج من خطب الرشيد وتوقيعاته ووصاياه وأدعيته ونبذاً من سيرته مستلة من مصادر التاريخ والأدب.

وهذه الدراسات جميعا، على فضلها، لم تعن عناية شاملة بالنظر في جل الشعر الذي قيل في الرشيد مدحا واستعطافا ورثاء وهجاء وانتقادا، كما لم ترصد أسماء الشعراء الذين نظموا فيه وركز بعضها النظر في أبيات من قصائد طوال في موضوع المدح حسب، فجاءت هذه الدراسة لتستأنف النظر في خصال الرشيد في أشعار كثيرة تناثرت في مصادر التاريخ والبلدان والأدب، وقاربتها جملة، ووازنت بينها لغة وبناء ومعنى وتصويرا.

منهج البحث وآلياته

تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في الموازنة بين النصوص الشعرية، وتفيد من المنهج التاريخي حين تنظر في النص وفضائه في المكان والزمان. وقد فرضت هذا المنهج طبيعة المادة المدروسة التي تقوم على النظر في النصوص الشعرية في مظانها من الدواوين وكتب الأدب والتراجم والتاريخ. وقد صنفت تلك الأشعار في مجموعتين:

1- الأشعار التي قيلت في مدحه، وهي الأكثر كماً.

2- الأشعار التي قيلت في رثائه وهجائه وانتقاده.

أولاً: الأشعار في مدحه

سأجعل الأشعار في مدح الرشيد لكثرتها في أربعة محاور هي:

أ- الشعر في مدح الرشيد مجاهدا :

لعل أقدم مدحة مدح بها الشعراء الرشيد هي الأبيات التي نظمها فيه مروان بن أبي حفصة، فهي ترتد إلى سنة 165هـ يوم كان الرشيد قائداً في إحدى المعارك مع الروم في خلافة أبيه المهدي. وتظهر هذه الأبيات الجيش العباسي بقيادة الرشيد، يضرب حصاراً على مدينة القسطنطينية، ولم يغادرها حتى جاءته ملوك الروم مذعنة بدفع الجزية من هول ما شاهدت من قوة الجيش العباسي، واحتدام ناره، يقول:[25]

أَطفْتَ بقسطنطينية الروم مسنداً
إليها القنا حتّى اكتَسى الذل سورها

وما رمتَها حتى أتتْك ملوكُها
بجزيتهـا والحرب تغْلي قدورهـا

وأكبر حادثة أثارت شعراء الرشيد هي حادثة انتصاره على نقفور في "هرقْلة[26] وعقده صلحاً معه على أن يؤدي نقفور الجزية كلّ سنة. غير أن نقفور نقض عهده مع الرشيد حتى قبل أن يبلغ الرشيد الرقة، العاصمة الثانية لدولته. ويبدو أن خبر هذا النقض بلغ بعض الشعراء قبل أن يصل إلى الرشيد، فتصدى بعض الشعراء لمدح الخليفة وإعلامه بالخبر، ومن هؤلاء الشعراء الحجاج بن يوسف التيمي، أو هو أبو محمد عبد ا بن يوسف، فقال[27]:

نقَض الذي أعطيتَـه نقْـفور
وعليه دائرةُ البـوار تدور

أَبشر أميـر المؤمنين فإنّـه
غُنْم أتاك به الإلـه كبيـر

فلقد تباشَرت الرعيـةُ أن أتى
بالنقْض عنه وافـد وبشير

ورجتْ يمينك أن تعجلَ غزوةً
تَشْفي النفوس مكانُها مذكور

فقد باشر الشاعر قصيدته بإعلام الخليفة بالخبر من اللفظة الأولى في الأبيات، ثم ثنّى في عجز البيت الأول بتهديد نقفور بوبال ما ارتكبت يداه، وذلك لأن "الخبر العاجل" يقتضي ذلك، ثم من باب تهوين وقع هذا الخبر على نفس الرشيد نراه يتْبعه ببشرى في البيت الثاني، فهذا النقض مهلكةٌ للروم، وفرحة تطمئن بها نفس الرشيد ورعيتُه، فهو فرصة سانحة بمعاودة إذلال نقفور إذلالاً جديداً ينضاف إلى إذلال ألبسه إياه الرشيد من قبل (أبشر، تباشرت، بشير).

ونرى الشاعر يرتد في القصيدة بعد ذلك إلى زمن إبرام العهد، وفيه نرى نقفور مطأطئ الرأس وهو يوقع على دفع الجزية للرشيد، والسيوف مسلولة لامعة مشعشعة، تكاد تطير من أكفّ المسلمين شهوة لطلى الروم:

أعطاك جزيتَه وطأْطأَ خده
حذَر الصوارم، والردى محذور

فأجرتَه من وقْعها وكأنّها
بأكفنـا شُعـلُ الضرام تطير

على ما في لفظة "أجرته" في هذا السياق من ظلال اجتماعية راسخة في الذهنية العربية، تكشف عن ضعف المستجير، وتمكن المجير واقتداره بما يحوز من أدوات موت تتحفز شعلها الملتهبة للطيران صوب المستجير الذليل.

ولم يكتف الشاعر بذلك، بل ظل حريصاً على إبراز قوة عساكر المسلمين الذين رجعوا والقوة حليفتهم، والمستجير

فرح بما وهب له من أمن وأمان:

وصرفْتَ بالطول العساكر قافلاً
عنه، وجارك آمن مسرور

ويلاحظ أن الشاعر بدل الأدوار في صور من الالتفات معجبة في القصيدة، تتساوق وطبيعة نفسيتي الرشيد المنتصر، ونقفور المنهزم، فجاء الخطاب موجهاً في جزء القصيدة الأول إلى الخليفة، وكان الحديث عن نقفور الناقض للعهد بصيغة الغيبة، ثم تحول الأسلوب بصورة عكسية في جزء القصيدة الثاني، فغدا نقفور مخاطباً؛ لأنه في موضع التبكيت والازدراء والتهوين منه ومن جرم ما ارتكب، وغدا الرشيد غائباً لأن الأمة الإسلامية، والشاعر منها، تتحدث عنه بالنيابة:

أظننْتَ حين غَدرتَ أنك مفْلتٌ
هبلتْك ُأمك، ما ظننْتَ غُرور

ألقاك حينُك في زواجرِ بحره
فطمتْ عليك من الإمامِ بحور

إن الإمام على اقْتسارِك قادر
قربتْ ديارك أم نأتْ بك دور

ليس الإمام، وإن غفلنا، غافلاً
عما يسوس بحزمـه ويديـر

ملك تجرد للجهاد بنفْسـه
فعـدوه أبـداً به مقْهـور

ويطلق الشاعر في ختام القصيدة جملة من البدهيات والمسلّمات التي يراها في الإمام، فهو "غير غافل عما يسوس ويدير"، "وهو حازم"، "وهو متجرد بنفسه للجهاد"، "وهو قاهر لخصومه"، "وهو يستمع لنصيحة النصحاء شكور لهم"، يسعى فيما يسعى إليه لتحقيق مطلبين: مرضاة ا ، والإخلاص للرعية:

يا من يريـد رضا الإله بسعيه
وا ُ لا يخْفى عليه ضمير

نصح الإمامِ على الأنامِ فريضةٌ
ولأهلها كفّـارةٌ وطَهـور

وعدو الرشيد لذلك كله "أبداً به مقهور".

وأثارت حادثة نقض نقفور لعهده مع الرشيد التيمي في أبيات أخرى، وفيها نجده يصور نقفور قد لجت به ولازمته أسباب الردى حين خان عهده مع الرشيد، فكانت تلك اللجاجة دافعة إياه لأن يعبث بغيل الليث/ الرشيد، وما درى أنه إن نجا جسده من التمزق بالأنياب والمخالب، سيظل الخوف يلازمه. لكن الرشيد حليم باقتدار، عطوف، فلم يشأ أن يقتل خصمه إشفاقاً على أزواجه أن تتقرح عيونهن، وتتشعث شعورهن، وهو ضرب من الاستخفاف والسخرية، يقول[28]:

لجتْ بنقفور أسباب الردى عبثاً
لما رأتْه بغيل اللّيث قد عيثـا

ومن يزر غيله لا يخْلُ من فَزعٍ
إن فاتَ أنيابه والمخلب الشيثا

خان العهود ومن ينكُثْ بها فعلى
حوبائِه، لا على أعدائِه نكثـا

كان الإمام الذي تُرجى فواضلُه
أذاقـه ثمر الحلْمِ الذي ورثـا

فَرد ُألْفَتَه من بعد أن عطفَتْ
أزواجـه مرهاً يبكينَه شُعثـا

ومن الشعراء الذين نظموا في هذه الحادثة أبو العتاهية، فقد قال أبياتاً فيها قدر من الصور على خلاف ما أثر عن هذا الشاعر من تقريرية، وافتقار إلى قدر معقول من المعاني التخييلية، كأن عظم المناسبة يسهم في استفزاز قدرات الشعراء، ليكون القول فيها على قدرها[29]

ألا نادتْ هرقْلـةُ بالخَرابِ
من الملك الموفق بالصوابِ

غدا هارون يرعد بالمنايـا
ويبرِقُ بالمذكـرة القصـابِ

ورايات يحل النصر فيـها
تمر كأنها قطَـع السحـابِ

أمير المؤمنين ظفرتَ فاسلم
وأبشر بالغنيمـة والإيـابِ

فهو يحكم على هرقلة بالخراب المحقق بإرادة القوة المخصوص بها الرشيد، وبإرادة الفعل بما ارتكب ملكها من حماقة، فها هي هرقلةُ تنادي الرشيد بأن يعجل في خرابها، فسارعتْ عساكره ترعد بالمنايا، وتبرق بالسيوف القاطعة، تعلوهم رايات النصر، ثم يختم الشاعر أبياته ملتفتاً إلى الرشيد ليبشره بنصر محقق، وعودة ميمونة.

وأسهم أبو الشيص في الإشادة بالرشيد حين انتصر على الروم في هذه الغزوة، وهو في إحدى قصائده فيها يكثر من رسم صور التقابل بين حال المسلمين وحال الروم في ثنائية ضدية تستدعيها المناسبة وفضاؤها حين يقول[30]:

شددتَ أمير المؤمنين قُوى الملك
صدعتَ بفتْح الروم أفئدة التُرك

فريتَ بسيف ا   هـ ـام عـدوه
وطأطأتَ للإسلامِ ناصيةَ الشرك

فأصبحتَ مسروراً بما كان ضاحكاً
وأصبح نقفور على ملْكه يبكـي

فالأبيات تقوم على رسم صور التقابل الساخرة على هذا النحو:

قوى ملك المسلمين مشدودةٌ ⇔ قلوب الرومِ والترك مصدوعة

سيفُ المسلمين يحز من قوة ⇔ ناصية الشرك وهامهم محزوزة مطأطئة

الرشـيد ضـاحـ ـ ـك ⟺ نقفـ ـ ـ ـ ـ ـور بـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاك

عرش المسلمين سامق عزةً ⇔ عرش نقفـ ـ ـور متـهاوٍ

ولأشجع قصيدة أخرى في هذه المناسبة، وفيها يهنئ الرشيد بعيدين: عيد الانتصار على الروم في هرقلة، وعيد الفطر، ويضرع إلى ا   أن يسبغ على الرشيد الصحة، وأن يطيل له في عمره ليستمتع بأيامه، لأنه ناصر الدين وراعيه، وقاتل المشركين ومذلهم، يقول:[31]

لا زِلْتَ تنشُر أعياداً وتَطْويها
تمضي بها لك أيـام وتثْنيـهـا

مستقْبلاً بهجةَ الدنْيا ولذّتَـها
أيامها لك نظْـم في لياليـهـا

العيد والعيد والأيام بينهـما
موصولةٌ بك لا تَفْنـى وتفْنيهـا

أمستْ هرقْلةُ مكلوماً جوانبها
وناصر الدين بالتدبير يرميهـا

ملكْتَها وملأْتَ الناكثين بـها
بنصرٍ من يملك الدنيا وما فيها

وكأن المناسبة تقتضي ألاّ يكون الشاعر مجرد واصف لحال واقعة، وتقديم تقرير خبري عما جري لهرقلة وملكها، فاختتم قصيدته ببيت تجافى فيه عن الواقع بالتسامي بالرشيد إلى آفاق غير مسبوقة، يقول فيه:

ما روعي الدين والدنْيا على قدمٍ
بمثْل هارون راعيه وراعيهـا

ولأشجع قصيدة في انتصار الرشيد على الترك في طبرستان، وقد أطلق الشاعر فيها لمخيلته أن تجلي مشهد هجوم الرشيد وجيشه، فصدع ما كان ملتحماً من أعضاء طبرستان، يسكب فوقها الدم لا الماء، كما صير الرشيد الجهاد مفروشاً فوق ظهور الجياد إلى أن وضع الدواء على موضع الداء، وذلك كله بحسن تدبيره، وسداد رأيه، يقول[32]:

أبتْ طَبرستان غير الذي
صدعتَ به بين أعضائِهـا

ضممتَ مناكبـها ضمةً
رمتْك بمـا بيـن أحشائِهـا

سموت إليها بمثل السماء
تدلّى الصواعقُ في مائهـا

فلما نظرتَ إلى جرحهـا
وضعت الدواء على دائهـا

فَرشْتَ الجهاد ظهور الجياد
بأبنـائـه وبأبنـائـهـ ـا

بنفْسك ترميهم والخيـول
كرمـي العقـاب بأفْلائِهـا

نظرتَ برأيك لما همَمـ ـتَ
دون الرجـ ـال وآرائِهـ ـا

وفي القصيدة، بعد، هذا الحقل الدلالي للاستعلاء الذي يرشح الاقتدار والانتصار لصاحبه، "سموت – السماء – تدلّى الصواعق، الجهاد فوق ظهور الجياد، العقاب"، وذلك فضلاً عن عذوبة موسيقاها بنظمها على البحر المتقارب ذي التفعيلات المتلاحقة القصيرة المتناغمة مع سرعة جريان الأحداث فيها، وفيها أيضاً هذا التناسق الداخلي بين الحروف، وبخاصة حروف الإطباق: الطاء والضاد والصاد لتأتلف مع ضم الرشيد لمناكب طبرستان ضمة ولّدت الهزيمة من أحشائها (رمتك بما بين أحشائها).

ووصف منصور النمري معركة كان الرشيد خاضها بجيشه مع الروم في الصفصاف، وكان الشاعر مع الخليفة في تلك المعركة، وفي خبرها قال أبو الفرج الأصفهاني: "فظفر الرشيد، وقد كاد أن يعطب لولا ا ، عز وجل، ثم يزيد بن مزيد..."[33] وليس في القصيدة أو فيما وصل إلينا منها أدنى إشارة إلى يزيد، وهذا مؤشر آخر دال على أن ليس كل ما وصل إلينا هو كل ما نظم في الرشيد. والأبيات التي بين أيدينا من تلك القصيدة وصف لفرس الخليفة وسرعته الفائقة، فهو إذا اشتكت أيدي الجياد يطير، ثم يقفز الشاعر فيها إلى إجمال نتيجة المعركة، فثمة قتلى تباشرت بلحومهم آكلات الرمم من الذئاب والنسور والضباع، وهو يتناص في هذا مع النابغة الذبياني في قصيدته التي جاء فيها قوله[34]:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبِ

مجلتُهم ذاتُ الإله ودينُهم
قويم فما يرجون غير العواقبِ

ويقول منصور في هذه القصيدة في صورة مقاربة[35]:

مضر علـى فاس اللّـجام كأنـه
إذا ما اشْتكتْ ايدي الجياد يطير

فظلّ على الصفْصاف يوم تباشرتْ
ضباع وذُؤْبـان بـه ونُسـور

فأقْسم لا ينْسى لـه ا ُ أجرهـا
إذا نُسيتْ بين العبـاد أجـور

ومما قاله منصور النمري في تصوير اجتياح جيش الرشيد لبلاد الروم[36]:

واليتَ حولاً مغاراً في بلادهم
وللْمنايا سحـاب ليـس ينْقَطع

لما أناخَ أمير المؤمنين بهـم
والخيلُ عابسةٌ والمـوتُ مكْتنع

خاضتْ إليهم خليج البحرِ هيبتُه
فأذْعنوا بأداء الخـرج وانْتجعوا

عاذوا بسبعة حيطانٍ قسورها
جنْد من الرعبِ لما نالهم خَضعوا

فالحيطان السبعة تظل دون سور جند الرعب المتطاول، وسحب المنايا المتواصلة تهطل بالموت فوق رؤوس المحتمين بتلك الحيطان، ولذلك كان الموت مكْتنعاً/ متجمعاً في أرض الروم.

ودفعت عملية المفاداة بين أسرى المسلمين والروم التي وقعت في سنة 189هـ مروان بن أبي حفصة لأن يقول[37]:

وفُكتْ بك الأسرى التي شُيدتْ لها
محابس ما فيها حميم يزورهـا

على حين أعيا المسلمين فكاكُها
وقالوا: سجون المشركين قبورها

والعجيب أن لا نجد في هذه الحادثة شعراً آخر غير هذين البيتين، مع أن الحدث كبير يستحق أن يقال فيه شعر كثير، وأن يكون ما قيل فيه صادق التعبير والتصوير ما دام المسلمون كانوا يائسين – على ما يقول مروان – من إمكان إطلاق سراح أسراهم قبل أن تقع هذه المفاداة التي كان الفضل فيها للرشيد.

ب- الأشعار في مدح الرشيد إماما للمسلمين:

لا تكاد مدائح الشعراء العامة في الرشيد تفترق عن مدائحهم فيه حين كانوا يشيدون بانتصار له هنا، أو آخر هناك، فهم يعاودون القول في تدينه، ورفعة نسبه، وحق بيته بالخلافة، وسخاء يده، وقمعه لمواطن الفتن، ورجاحة رأيه... الخ.

غير أننا سنلاحظ أننا سنجد أنفسنا أمام قصائد طويلة نسبياً، وأن تلك القصائد بنيت بناء تأتلف فيه مقدماتها مع مضمونها الأساس، ومحورها العام.

وأول قصيدة يحسن الوقوف عليها في هذا السياق هي قصيدة لأشجع السلمي، فقد بدأها الشاعر بوصف قصر الرشيد الذي "نثرت عليه جمالها الأيام"[38] بهذا التعبير الجمالي المطلق غير المقيد؛ إذ انسحب ما في نفس الشاعر من حبور ورضا وسلاسة على هذا الجزء الأول من القصيدة، وهو تساوق وائتلاف وتجاذب صرنا نجده بكثرة في الشعر العباسي بين المعطى النفسي والأثر الخارجي[39]، فأن يكون قصر الرشيد هذا منثوراً عليه جمالُ الأيام، وأنه سامق يتجاوز في سموقه سقوف المزن، وأنه محلى بكل ألوان أزهار الأرض التي حاكها له الربيع، وبحبيبات المطر الناعم الخفيف، إنما يكشف عن سعادة الشاعر الغامرة، ورضاه المطلق عمن بناه، وحلّ فيه، ليجيء جزء القصيدة الثاني بعد ذلك معدداً ومحدداً مواطن عظمة صاحبه التي كان القصر بعض آثارها:

كانت كنوز مآثرٍ فأثارهـا
ملك علـى آرائـه عـزام

ومن تلك الكنوز، بل على رأسها، نسبه إلى النبي الكريم، صلوات ا عليه وسلامه، ووصيتُه – فيما يزعم الشاعر – أن تكون الخلافة في بيته وقرابته:

أدنتْك من ظل النبي وصيةٌ
وقرابةٌ وشجتْ بها الأرحام

ثم انتصاراته حين برقت سماؤه في العدو فأمطرتْ "لها ظل السيوف غمام"، وسداد رأي، وعزم، وحزم صارت كلها جنداً منافحاً عن الإسلام حتى غدا الإسلام "والشاهدان الحل والإحرام" من جملة من يثني على صاحب هذا القصر، إلى أن يقول في آخر القصيدة في صورة من التناظر جميلة: رصد الإظلام والروع يلقيهما الرشيد في نفوس أعدائه حين يتنبهون، في مقابل رصد ضوء الصبح وحلْم الرشيد حين يغفو خصمه:

وعلى عدوك يا بن عم محمد
رصدان: ضوء الصبح والإظْلام

فإذا تنبه رعـتَه وإذا غـ ـفا
سلّتْ عليه سيوفَـك الأحـ ـلام

وحرص بعض شعراء هذا المحور الثاني على بناء قصائدهم على المنحى المعروف في بناء القصائد العربية القديمة، مراعاة لذوق الرشيد، ولنا في الخبر الذي يسوقه أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه في أخبار أشجع السلمي دليل على ذلك. قال أشجع: "شخصتُ من البصرة إلى الرقـة فوجدت الرشيد غازياً، فنالتني خلّة، فخرجتُ حتى لقيته منصرفاً من الغزو، وكنت قد اتصلتُ ببعض أهل داره، فصاح صائح ببابه: من كان ههنا من الشعراء فليحضر يوم الخميس، فحضرنا سبعة وأنا ثامنهم... وقدم واحد واحد منا ينشد على الأسنان وكنت أنا أحدثَ القومِ سناً... فما بلغ إلي حتى كادت الصلاة أن تجب، فقُدمتُ والرشيد على كرسي... فقال: أنشدني، فخفْتُ أن أبتدئ من أول قصيدتي بالتشبيب

فتجب الصلاةُ، ويفوتني ما أردتُ، فتركتُ التشبيب، وأنشدته من موضع المديح في قصيدتي التي أولُها:

تذكر عهد البيض وهو لها ترب
وأيام يصبي الغانيات ولا يصبو

فابتدأتُ قولي في المديح:

إلى ملك يستغرق المالَ جوده...

فضحك الرشيد، وقال: خفْتَ أن يفوت وقتُ الصلاة فينقطع المديح عليك، فبدأت به، وتركت التشبيب. وأمرني أن أنشده التشبيب فأنشدته إياه"[40].

ونرى الشاعر يوطئ لقصيدته هذه ببيت أظهر فيه حنينه إلى أيام الصبا حين "كان يصبي الغانيات ولا يصبو"، كأنه يريد أن يقول لممدوحه: على رغبتي في مسايرة النمط العربي في نظم القصيدة بما يروق الممدوح ويستهويه، فإنه لا مجال في حياتي إلا للجاد من الأمور مذ كنت ترباً للبيض.

وقد جاء هذا القفز من المطلع الخاص بسلوك الشاعر وعلاقته بالمرأة إلى الإشادة بالرشيد في البيت الثاني غير مسوغ فنياً، كأن ثمة بيتاً أو أبياتاً يتعلق بهما الجار والمجرور، "إلى ملك"، وبخاصة اننا نجد في البيت الرابع من القصيدة عَدّ سير إبل إلى الممدوح، ووصف رحلة[41]:

متى تبلغ العيس المراسيلُ بابه
بنا، فهناك الرحب والمنزلُ الرحب

والقصيدة تكرار لخصال الرشيد، من نثر المكارم، وسكب المعروف، والشجاعة، وحسن القيادة والمهارة فيها ورفعة النسب، فهو الإمام الرضا. وهذه الصفة الأخيرة توكيد لمقولة العباسيين وشعار دعوتهم: الرضا من آل محمد، وهي الفكرة التي جهر بها أبو العباس السفاح في خطبته الأولى في الناس حين ولي الخلافة سنة 132 هـ[42]، يقول أشجع:

وما زالَ هارون الرضا بن محمد
له من مياه النصرِ مشْربهـا العذْب

وما بعد هارون الإمـامِ لزائـرٍ
يرجي الغنَى جدب ولا دونه خصب

وفي القصيدة إشادة بحكنة الرشيد، وانتصاراته على أصحاب الأهواء والفتن حتى صير الرعية ركباً متجانساً مؤتلفاً:

جمعتَ ذوي الأهواء حتى كأنهم
على منْهجٍ بعد افتراقهـم ركْب

ونجد أبا نواس المتمرد على الوقفة الطللية يلتزم بهذه المنهجية في مدائحه في الرشيد فهو يقول في إحداها[43]:

حي الديار إذ الزمان زمان
وإذ الشباك لنا حرى ومعان

فشبب فيها، ووصف الطلل والرحلة والراحلة، وإن لم يطل الوقوف على الديار، ولم يغرق في وصف الراحلة والرحلة، ولذلك جاء الجزء الأكبر من القصيدة في مدح الرشيد، فأثنى على حسن تدبيره لشؤون رعيته، فقد أحلّ الوئام والائتلاف بينهم محل الأحقاد والأضغان، كما أثنى على تدينه بحجه وغزوه في رحلتين نائيتَين ومتعاكستين في الاتجاه ، تضعف بينهما قوى الأقوياء وعزائمهم في تلميح مكشوف إلى تفرد الرشيد عزيمة ومضاء، وهي صورة من توزع اهتمامات الرشيد لطيفة، يقول:

هارون ألّفنَا ائتلافَ مودة
ماتتْ لها الأحقَاد والأضغَان

في كل عامٍ غزوة ووفَادةٌ
تنبت بين نواهما الأقْـران

حج وغزوةٌ مات بينهما الكرى
باليعملات شعارها الوخَدان

يرمي بهن نياطَ كل تنوفَة
في ا ِ رحالٌ بـها ظعـان

فتقوى الرشيد هي محفّزه إلى ابتذال غرته المهدية في الحج، وفي منادمة سيوفه لدماء الخصوم، على ما في لفظة منادمة في هذا السياق من استمداد من معجم أبي نواس في الخمريات، وذلك حين يقول فيها:

لكنه في ا ِ مبتذلٌ لـ ـها
إن التقـي مسدد ومعـ ـان

أَلِفَتْ منادمةَ الدماء سيوفه
فلقلما تَحتـازها الأجفـ ـان

ومن القصائد التي جرت هذا المجرى قصيدة لمنصور النمري مطلعها[44]:

أمير المؤمنين إليك خُضنا
غمـار الموت من بلـد شطيرِ

بِخُوصٍ كالأهلّة جانفـات
تميلُ على السرى وعلى الهجيرِ

وهو فيها كأبي نواس لا يطيل في وصف الراحلة والرحلة، وقد وشّى مطلعها بتعجله في مدح الرشيد، فنعته في القصيدة ابتداء من البيت الثالث بالجود، والعفو، والحلم الذي وسع إساءة يحيى بن عبد ا العلوي[45]، الذي كان خرج في سنة 176هـ في بلاد الديلم، ثم عفا عنه الرشيد في خبر طويل ليس هذا محله. وقد تحول الشاعر في القصيدة إلى محاجج عن العباسيين وحقهم في الخلافة، وأخذ يدحض حق العلويين فيها، فخفت لذلك صوت الشعر، فالعباسيون/ العمومة أولى من العلويين/ أبناء العمومة، لأن الأعمام

يحجبون ميراث أبناء الأعمام، والعباسيون هم الذين حموا العلويين من وتْر الحاقدين، وتولوهم بعين الرعاية.

والقصيدة مثقلة بهذه الإشارات التاريخية التي تومئ إلى تاريخ الصراع بين العلويين والعباسيين، وبين العلويين والأمويين من قبل، ومما جاء فيها:

ألا در بنـي علـي ... وزورٍ من مقالتـهم كثيـرِ

يسمون النبي أبـاً ويأبـى ... من الأحزاب سطْر في سطورِ

وإن قالوا: بنو بنت، فحق ... وردوا ما يناسـب للذكـورِ

وما لبنـي بـنَات من تُراث ... مع الأعمام في ورق الزبورِ

بني حسنٍ ورهط بني حسينٍ ... عليـكم بالسـداد من الأمورِ

أميطوا عنكم كذب الأمانـي ... وأحلامـاً يعدن عدات زورِ

ولعل أكثر القصائد في الرشيد التزاماً بالمنحى التقليدي هي دالية مسلم بن الوليد[46]، فقد جاءت المقدمة التقليدية في خمسة عشر بيتاً من مجموع أربعين بيتاً هي عدد أبياتها، وظلّ الشاعر في الأبيات التالية يصف الرحلة ومشقاتها، والبيد وتضاريسها، والإبل وما تجشمت من عناء مع إشارات طائرة إلى الممدوح، ولم يباشر المدح تحقيقاً إلا من البيت الحادي والثلاثين، وقد تمحورت الأبيات حول بيان اقتدار الرشيد على التأليف بين أصحاب الأهواء بالعفو عنهم، أو سفك دمائهم، أو استسلامهم، أو هروبهم إلى أجواف الصحارى ليصيروا فرائس ما بها من وحش. والحق أن هذا تبسيط شديد لما في القصيدة من دقيق المعاني، وبراعة التصوير، وبخاصة ما جاء منها في قراءة الشاعر لنفسية هذا الخارج، وقد تلبسها الفزع المميت، يقول:

وقفْتَ على النهج الظنون فصرحتْ ... وأدى إليـك الحكْـم كل مشـرد

إذا اختلَفَتْ أهـواء قـومٍ جمعتهم ... علـى العفْوِ أو حد الحسـامِ المهنّـد

إذا انْحجروا جلّـى بخَـوف عليهم ... وإن أصحروا كانوا فريسةَ مرصد[47]

بكل سبوحٍ فـي العجـاج كأنمـا ... تكنفَ عطفَيهـا جناحـا خفَيـدد[48]

تحيوا بأطْـراف القـنا وتعانقـوا ... معانقـةَ البغضـاء غيـر التـودد

وفاجأْتَـه قبـلَ الوعيـد بحتْـفه ... وقد عجزتْ عنه عسى وكأن قـد[49]

وخافك حتى صار يرتاب بالمنى ... ويتْهم نَجوى النفْسِ عنْد التوحـد[50]

وتفرد مسلم بن الوليد بمدحة أخرى في الرشيد جاءت غريبة؛ إذ وطأ فيها بذكر الخمرة ومجالسها[51]، وفيها نراه فرحاً مستبشراً بما تهيأ له من ألوان المتع: فالخمرة معتقة فأغلى الشماس والقس ثمنها، ولونها في الكأس لون الياقوت، فإذا ما مزجت بالماء صارت كالورس... في صورة تجعل مجلسه كمجالس أبي نواس الخمرية المعروفة، ثم نجده يقفز بلا تخاص إلى الرشيد وأخته فيثني عليهما وعلى رفعة نسبهما، وقد بدأها بقوله:

هات اسقني طالَ بي الحبس ... من قهـوة بائعهـا وكْـس

ثم يستغرق في وصف خمرته ومجلسها في خمسة أبيات ليقول بعدها مباشرة:

هارون بدر لبني هاشـمٍ ... وأُخْتُ هارون لهم شمـس

لا يبرح الزوار من بابها ... كأنمـا ضمهـم عـرس

إلى أن يقول في ختامها:

قد فصد العرقَ إمام الهدى ... في ساعة جانَبهـا النحـس

في مجلسٍ تمتْ لذاذاتُـه ... يعجز عنه الجـن والإنْـس

أعقَبـه ا ُ سـُروراً بـه ... وقرت العينـانِ والنفْـس

وأغلب الظن أن هذه القصيدة محمولة على الشاعر، فأسلوبها لا يشاكل أسلوب مسلم بن الوليد بحال، فصورها الباهتة السطحية على خلاف صوره الدقيقة، وجمله الشعرية لا تداني جمله المشحونة بالبراعة في النظم، ثم إنه لا يعقل أن تذكر أخت هارون الرشيد في قصيدة فيها تغن بإحدى الكبائر، وفيها تَغزل بمن كُن في مجالس القصف من عين المها والبقر اللعس، والغادة المستديرة الساقين.

ولأبي نواس قصيدتان تجريان مجرى متقارباً من قصيدة مسلم هذه، سأعرض عنهما اختصاراً[52]، كما لأشجع السلمي قصيدة سارت هذا المسار، فقد خصص الشاعر فيها ثمانية أبيات لوصف الخمرة، ثم قفز في بيتين اثنين إلى الرشيد. وقد أظهر الشاعر في أبياته الثمانية كل أشكال العبث والتمرد والجنون "جنون الصبا أو جنون المدام"، فقال[53]:

لا عيش إلا في جنون الصبا
فإن تولـ ـى فجنون المـ ـدام
كأس إذا ما الشيخُ والى بها
خمسـ ـاً تردى برداء الغـ ـلام
ظاهرةُ الحسن إذا جردتْ
لطيفـ ـةُ المسلك بين العظـ ـام

إلى أن يقول:
وثّابةٌ في الكأس إن صفقَتْ
تَرمي إذا ما مزجتْ بالسهـ ـام
هارون يحمي ملْك آبائـ ـه
ورب هارون لهارون حـ ـ ـام
خليـ ـفةٌ مؤنسـ ـه سيـ ـفـ ـه
مشـ ـاور للرأيِ لا للأنـ ـ ـام

فإن هذا القطع بالانتقال المفاجئ لا يستقيم بحال، ولا أظن حصافة الشاعر تسيغه، ولا يمكن أن يقبل به الممدوح، كأن ثمة أبياتاً سقطت من القصيدة. ومن غير شك ان مثل هذه القصائد كانت من جملة الأسباب التي اتكأ عليها من وسم الرشيد بسمة العبث.

ولو حاولنا الاستئناس بمدائح أخرى في الرشيد لوجدنا أن الشعراء كانوا يظهرون أنفسهم جادين غير عابثين في مقدمات قصائدهم فيه، ولنا على ذلك ثلاثة نصوص - فضلاً عن النص الذي أثبتناه من قبل لأشجع السلمي نفسه - قصيدتان وأرجوزة، الأولى لمنصور النمري مطلعها[54]:

يا زائرينا من الخيـ ـامِ
حياكمـ ـا ا ُ بالسـ ـ ـلامِ

ومحور هذه القصيدة هو مدح الرشيد، وقد أظهر الشاعر في مقدمتها عفافه وترفعه عن العبث، لأن زمن الجهل قد ولى، فسنه لا تجيز له ذلك، وقد اتكأ على هذا القول ليوطئ لمدحته في الرشيد، فقال:

هيهات للهـ ـو والتصابي
وللغوانـ ـي وللْمـ ـ ـدامِ
أقْصر جهلي وثاب حلْمي
ونَهنَه الشَيب من عرامي

ثم أعقب ذلك قوله في الرشيد:

بورك هارون من إمـ ـام
بطاعة ا ِ ذي اعتصامِ
يسعى على أمة تمنى
أن لو تَقيه من الحمـ ـامِ

والثانية لمحمد بن مناذر[55]، وقد صرح الشاعر فيها أنه ظل حتى بلغ الستين في سفه وطيش وعبث، ولم يخلع عنه ثوب الصبا وبارقه إلا حين اتصلت أسبابه بأسباب الخليفة الذي كان القدوة، يقول:

إن سفاهاً بذي الجلالة والشـ ـ ـ ـيبة
ألاّ يـ ـ ـ ـزالَ مفْتُونـ ـ ـ ـا
لَبستُ ثوب الصبا وبارقَه
وقد مضتْ من سني ستونـ ـا
لما رأينا هارون صار لنا
الليلُ نهاراً بضوء هارونـ ـا
فلو سألْنا بحسنِ وجهك يا
هارون صوب الغمامِ سقينا

وأما الأرجوزة فهي للعماني الراجز وفيها يقول[56]:

لما أتانَـ ـا خبـ ـر كالشهـ ـد
شيب بمـ ـاء نقْرة صلْدْ ـ ـد
جاءتْ به البرد وغير البرد
ودعتُ هنداً وقطين هنـ ـد
فجئتُ من حنْظلَة وسـ ـ ـعد
أطْـ ـوي الدياميم بسيرِ أَد
إلى امرئٍ له أيـ ـاد عنـ ـدي
واجبـ ـةُ الـ ـحق ولـ ـم أُؤد
حقوقَها، ولو جهدتُ جهدي
هارون يا فرخ فروع المجد
ويابن أشْياخ الحطيـ ـم التلْد
القائمين الليلَ بعد الرقْـ ـد
يرجون جنان الخُـ ـلْد

وواضح أن العماني يعلن صراحة عن إقلاعه عن التغزل بالنساء، واللهو بهن أو معهن، لأن وقت الجِد قد أزف بمدح الخليفة سليل فروع المجد، الذين يرجون جنان الخلد، فيقومون ليلهم يصلون...

ولمنصور النمري قصيدة طويلة في مدح الرشيد بلغت سبعين بيتاً، وقد بناها بناء معجباً؛ إذ كان الشاعر في جزئها الأول الذي امتد في خمسة عشر بيتاً مثقلاً بهموم السنين، والتحسر على تقضي أيام الشباب. وكان المطلع هو نقطة الارتكاز التي انداحت عنها سائر هموم الشاعر في الأبيات بعد، حتى وجد خلاصه من حالة الضياع والتأرجح بين حاضر محزون، وماضٍ شفيف قد ولى بالخلود إلى كنف هارون الرشيد الذي لعب دور المخلص والمنقذ في القصيدة، يقول الشاعر[57]:

ما تَنْقضي حسرةٌ ولا جزع
إذا ذكرتُ شبابـ ـاً ليس يرتَجـ ـع

بان الشباب وفاتتني بشرتـه

صروفُ دهرٍ وأيـام لها تبـع

ثم يقول في البيت الخامس عشر في خطاب إلى الذات، وقبل أن يدلف إلى مخلصه ومنقذه:

قد كدتَ تقْضي على فوت الشبابِ أسى

لولا تَعزيك أن العيشَ منْقطع

وإن رجع النظر في هذه الأبيات يؤكد "ما يراه الأسلوبيون عن فكرة الإجبار الركني، وتقوم هذه الفكرة على نتائج الفحص الأسلوبي التي تشير دائماً إلى أن عناصر النص يدعو بعضها بعضاً، حيث يتم عادة اختيار العناصر الأولى اختياراً حراً، ثم تفرض هذه العناصر الحقل الدلالي المتسق معها(58)".

ويضرب الشاعر بعد ذلك عن إطلاق تلك الآهات الحارة ليريح نفسه من عناء ما تلاقي بالهروب إلى مخلصه الرشيد، ليجد فيه ما يسر، فهو يهب الغنى، وهو محيي الدين، ومحقق الأمن، وجانبه مرهوب:

لا بلْ بقَاء أمير المؤمنين لنا

فيه الغنى وحياةُ الدينِ والورَعِ

إن أخْلَفَ الغيثُ لم تُخلِفْ مخايلُه

أو ضاقَ أمر ذكرنـاه فيتّسـع

إن الخليفةَ هارون الذي امتَلأتْ

منه القلوب رجـاء تحتَه فَزع

ويستمر منصور النمري على هذه الشاكلة في تعداد صفات الرشيد، وهو يسوقها في تقارير ثابتة، وحقائق مؤكدة، ومسلمات لا يتداخلها أدنى شك، وبخاصة ما يتعلق منها بتدين الرشيد وجهاده:

هو الإمام الذي طاب الجهاد به

والحج للناسِ والأعيـاد والجمـع

حصن بنَتْه يمين الله يسكُنُه

الإسلام صعب المراقي ليس يطلَع

يقْري العدو المنايا والعفاةَ نَدى

من كل ذاك الندى أحواضه تُرع

صب إلى الله زوار لكعبته

في كل عامٍ، وإن زوارها شَسعوا

ويستمر في تعداد محاسن الرشيد، ويبرز فضائله في سياسته الداخلية، وحقه في الخلافة، ويطعن في الأمويين الذين تطاولوا على الخلافة وسلبوها من أصحابها، كما يشيد بسياسة الرشيد في تأمين الثغور، والانتصار على الروم. ويطل في أثناء ذلك رأس الخيط الدقيق الذي ربط الشاعر خلاصه من أزماته النفسية به حين يقول:

إذا بلغْنا جمالَ الدينِ لم تَرنا

للحـادثات بحمد الله نخْتَشـع

أدى إليك مطايانا وأرحلَـنَا

تقاذفُ السيرِ إن الخير متبـع

والملاحظ على هذه القصيدة، وعلى معظم الشعر الذي قيل في مدح الرشيد، أن طاقات الشعراء الإبداعية في حسن التصوير تبرز حين يصفون المعارك مع الروم، في حين تتضاءل الصور الشعرية، وقد تختفي حين يقفون محاججين بحق العباسيين بالخلافة.

وركز منصور النمري على إبراز خصلة الكرم في الرشيد، الذي كان غيثاً عاماً نافعاً، وبخاصة في زمن قد تكدي فيه الغيوث، وهي حالة سبق لشعراء العصر الجاهلي أن ألموا بها في كثير من أشعارهم حتى غدت جزءاً من ثقافة العربي في كل عصر. غير أن النمري يتجاوز هذه الفكرة المكرورة حين يقول: إن الغيث يكاد يضير إذا حلّ موطناً بعد أن يكون الرشيد حلّه من قبل(59):

إذا الغيثُ أكدى واقْشَعرتْ نجومه

فغيثُ أمير المؤمنين مطير

وما حل هارون الخليفةُ بلـدةً

فأخْلَفَه غيثٌ وكاد يضيـر

ويسرف الشاعر في إسباغ صفة التفرد على الرشيد، فهو لا نظير له بعد محمد –عليه السلام- منعة حمى، وندى، حتى غدا الخليفة الأمير يأتمر بأمر كرمه. يقول في هذه الثنائية الضدية اللطيفة:

منيع الحمى، لكن أعناقَ ماله

يظل الندى يسطُو بها ويسور

وقفْتُ على حاليكُما فإذا الندى

عليـك، أمير المؤمنين، أمير

وعني بعض شعراء الرشيد بالإشادة بمآثره في بناء القصور،وشق قنوات الري، وكان فيما يقول السيوطي: "رام... أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم"(60) وقد أثبت الطبري بيتين قالهما شاعر غير مسمى في باقردى التي بنى فيها الرشيد قصره، هما قوله(61):

بقَردى وبازبدى مصيفٌ ومربع

وعذْب يحاكي السلسبيلَ برود

وبغْداد، ما بغداد، أما ترابها

فَحمى، وأما حرهـا فشديـد

وفي شق قناة ري قال أشجع السلمي(62):

أجرى الإمام الرشيد نهراً

عاش بإجرائـه المواتُ

جـاد عليه يريـق فيـه
وسر مضمونُـه الفراتُ
ألْقَحـه درةً لقُـوحـ ـاً
يرضع أخْلافَهـا النباتُ
على رياضٍ لـه بنـاتٌ
ما ولدتهـن أُمهـ ـاتُ
للماء من فوقها انْتبـاه
وللثرى تحتهـا سـباتُ
في جانبيـه وجانبيـها
أعنةُ المـاء مطْلقـاتُ

والأبيات تكشف عن اعتناء الرشيد بشؤون الزراعة، وعن تلطف الشاعر في التعبير والتصوير، فجاءت رخية عذبة، فقد غدا النهر ناقة لقوحاً ذات أخلاف ملأى دائماً بالحليب، وغدا النبات بنات يرضعن من وفرة الحليب في الأخلاف.

ج- الشعر في هارون الرشيد إداريا:

1- الشعر في ولاية العهد:

استحوذ تعيين الرشيد لثلاثة من أبنائه ولاة للعهد على اهتمام عدد من الشعراء، فقد ولى محمداً (الأمين) وعمره يومئذ خمس سنين، وذلك سنة 175هـ، وبايع عبد ا (المأمون) وعمره اثنا عشر عاماً، ووثق عهده لهما حين كتب ذلك العهد في البيت الحرام، وأشهد عليه الناس سنة 186هـ، وعقد للقاسم (المؤتمن) في السنة نفسها(63).

وقد اتخذ الشعراء موقفين متعارضين من هذه السياسة، فالأكثرون أشادوا بالخليفة وبولاة عهده، كل بحسب علاقته الخاصة بهذا الولي أو ذاك، والأقلّون عدوا ذلك تصرفاً غير حكيم سيوقع الأبناء في تحاسد وتباغض وفتن ستجر الدولة الإسلامية إلى الويلات.

والملاحظ على أكثر الشعر الذي قيل في مدح صنيع الرشيد هذا أنه أدخل في باب المجاملات، وأن جله مقطّعاتٌ خلت من الحس الشعري الذي يقوم على براعة التخييل، والتدقيق في النظم. ومن الأمثلة على هذا الضرب قولُ سلْم الخاسر في أعقاب أخذ البيعة للأمين(64):

قد وفّقَ ا ُ الخليفـةَ إذ بنَـى
بيتَ الخلافة ِللهجانِ الأزهرِ
فهو الخليفةُ عن أبيـه وجـده
شَهدا عليه بمنْظرٍ وبمخْبـرِ
قد بايع الثقلان في مهد الهدى
لمحمد بن زبيدةَ ابنة جعفرِ

وحين عقدت البيعة للمأمون نظم سلْم أبياتاً نعته فيها بأنه ذو حجا، وخلق فاضل، وعلْم نافذ، وجود كبير... وهي أبيات ليس فيها غير الذكر المباشر لنعوت المأمون، لأن من ولاه "إمام الهدى"(65).

وزين عبد الملك بن صالح للرشيد حسن صنيعه في أخذ البيعة للقاسم، فقال في أبيات باهتة، ومنطق غريب حين زعم أن الأسلم في ما صنع الرشيد أن يوتر ولاية العهد قياساً على أن(66):

ا فـرد واحـد فاجعلْ ولاةَ العهد فَردا

وزعم في أخرى أن هذا الإجراء يدل على حسن تدبير الخليفة ومحبة الناس له، والرأفة بالأبناء والرعية، فقال(67):

حب الخليفة حب لا يدين به
من كان ِ عاصٍ يعملُ الفتَنـا
ا ُ قاد هاروناً سيـاستَـنا
لما اصطَفاه فأحيا الدين والسنَنا
وقاد الأرض هارون لرأْفَته
بنا أمينـاً ومأمونـاً ومؤْتمـنا

ولعل من أجود ما قيل في هذه المناسبات، ما قاله أشجع السلمي في توثيق بيعة الرشيد لابنيه الأمين والمأمون في البيت الحرام، فقد توافر فيما قال مقدار من الجمل الشعرية والجملة الشعرية "هي الوحدة الشعرية المتكاملة، بنائياً ودلالياً، تكاملاً عضوياً يشكل نسقاً حياً وذاتياً"(68)، فقد استدعى ذكر "البيت الحرام" كل عناصر الحقل الدلالي المتسق معها: الحرمين، الحجر، والحجر، والمس والاستلام، وزمزم والمقام، والمسلمين... وكأن الشاعر كان يحس من كلّ هذه المتداعيات اللفظية ذات القداسة الخاصة بضرورة إشعار ولَدي الرشيد بثـقْل الأمانة والمسؤولية التي شهد ا والمسلمون على إبرامها، يقول فيها تصريحاً ولابنيه تلميحاً(69):

استأنَس الحرمـانِ منْـك
بزورة فـي كل عـ ـام
والحجر والحجر الأصم
بطـول مس واستـ ـلام
قَضيتَ نُسكك وانْصرفْـتَ
بخيرِ ظعـْنٍ أو مقـ ـام
وكتبـتَ بيـن خليفتيـك
كتاب قطْـعٍ للخصـ ـام
عقْداً شددتَ قـواه مـا
سجع الحمام مع الحمـام
قلّـدتَـ ـه عنقَيهـ ـما
يشَهـادة البيـت الحـرام

والمسلمون شـ ـهود ذاك
بين زمـ ـزم والمقـ ـ ـام

وشهيـ ـدك ا ُ العلـ ـي
عليهمـ ـا وعلى الأنَـ ـام

والأبيات بعد، فضلاً عن نباهة الشاعر فيها وخشيته من "الخصام"، تجري مجرى عذباً سائغاً بموسيقاها الرقيقة ووزنها القصير/ مجزوء الكامل/ المقيد الروي، المنسجم مع القيد/ إبرام العهد وتوثيقه بكل عناصر شهوده/ الذي قيد به الرشيد ولديه.

وممن أسهم في تزيين صنيع الرشيد بعقد البيعة لأبنائه الثلاثة أبو العتاهية، وقد جاءت أبياته عفوية التعبير، جميلة التصوير، فقد استحضر الشاعر فيها كل مستلزمات التضحية من أجل الدين ، حين عد صنيع الرشيد هذا ضرباً من الحرص على مصلحة الأمة الإسلامية فحرصه على تسيير الزحوف إلى خصومه، وحرصه على راحة رعيته وسهره الدائم عليها لا يتجافى عنه أخذه البيعة لأبنائه، يقول[70]:

رحلْتُ عن الربع المحيل قَعودي
إلى ذي زحوف جمة وجنود

وراعٍ يراعي الليلَ في حفْظ ُأمة
يدافع عنها الشر غير رقود

بألويـ ـة جبريـ ـلٌ يقْـ ـدم أهلَـ ـها
ورايـ ـات نصر حوله وبنود

تجافى عن الدنيا فأيقن أنّـ ـ ـها
مفارقةٌ ليست بذات خُلـ ـود

وشَد عرى الإسـ ـلامِ منه بفتْية
ثلاثـ ـة أملاك ولاة عهـ ـود

تُقلب ألحاظَ المهابـ ـة بينـ ـهم
عيون ظباء في قلوبِ أسود

فهو دائم السهر، متجاف عن الدنيا في سبيل الحفاظ على أمته، منصور معضود بالملائكة في زحوفه، قد وثق عرى الإسلام بما عهد لأبنائه الشجعان.

وللعماني الراجز أرجوزة ذات مضمون مخالف في أمر بيعة الرشيد لأبنائه، ففيها يذكر أن الرشيد أبطأ في اتخاذ مثل هذا الإجراء، وهو أمر أثار مخاوف الناس من اضطراب حبل الأمن لو توفي الخليفة دون أن يسمي له ولي عهد، يقول العماني في تلك الأرجوزة مخاطباً الرشيد[71]:

ما الناس إلا غنَـ ـم تُنشـ ـر
إن لم تداركْهم براعٍ يخطر

على قواصي طُرقها ويستر
ويمنع الذئـ ـب فـ ـلا ينفّـ ـر

فامنُن علينا بيـ ـد لا تُكْفَـ ـر
مشهورة ما دام زيتٌ يعصر

لا خير في مجمجمٍ لا يظْهر
ولا كتابِ بيعـ ـة لا ينشَـ ـر

بل وصلت الجرأة بالشاعر إلى حد تقريع الرشيد وتأنيبه على تردده غير المسوغ في نظره، فالناس قلقون والخليفة رخي البال، يقول في خطاب مباشر له:

وقد تَربصتَ فليس تُعذر
فليتَ شعري ما الّذي تنْتظر

أنائم أنتَ به أم تسـ ـهر
مالك في محمـ ـد لا تقْـ ـدر

وليتَ شعري والحديثُ يؤْثَر
أترقـ ـد اللّيلَ ونحن نَسهـ ـر

خوفاً على أمورنا ونضجر

وحين سمى الرشيد ابنه محمداً ولياً للعهد عبر العماني عن ارتياحه وارتياح المسلمين الشديد، وأنه لو لم يفعل –كما يقول- لوقعت الفتنة، وهلك الناس:

وقُلد الأمر الأغَر الأزهر
وابتَهج الناس به واستَبشَروا

وهللوا لِربهـ ـم وكبـ ـروا
شكْراً، ومن حقهم أن يشكروا

إذ ثُبتَتْ أوتاد ملْك يعمر
وا ِ وا ِ الـ ـذي يسـ ـتَغْفَر

لأن يموتَ معشر ومعشر
خير لنـ ـا من فتْنة تُسـ ـعر

يهلك فيها دينُهم ويوزر

والأرجوزة سهلة الألفاظ وهي على خلوها من التصوير، وجنوحها المفرط إلى المباشرة والتقريرية، متلاحمة، تتنامى فيها الأفكار، ويتولد بعضها من بعض، وهي على ما فيها من جرأة ظاهرة في الخطاب تظل تشي بولاء الشاعر للخليفة ولأهل بيته، وللرعية الإسلامية التي يحرص عليها الرشيد.

وتجاوز شاعر غير مسمى العماني الراجز في هذه الجرأة المبطنة بالحب والإخلاص إلى تسفيه صنيع الرشيد بتقسيم البيعة بين أبنائه. حقاً هو لم يكن ناقماً على مبدأ أخذ البيعة من حيث هو، وإنما كان منتقداً لأن يعهد الأمر لثلاثة معاً، مما سيقود إلى تناحرهم واقتتالهم وإن كانوا إخوة، كأنه يقول إن النفوس البشرية بطبعها ميالة لحب التملك الفردي، وتتصارع من أجل الوصول إلى السلطة بأي وسيلة، ووبال هذا كله سيكون كبيراً على الرعية، وستسيل دماء غزيرة لا يتحمل جريرتها غير الخليفة الذي صنع هذا الصنيع. وقد

جاءت هذه القصيدة/ النبوءة عفوية التعبير، لا تكلف فيها ولا تصنع. أما ان يكون قائلها غير مسمى فإن ذلك يدل على خطورتها، فخشي صاحبها أن يفصح عن اسمه فيعاقب، يقول[72]:

أقولُ لِغمة في النفْسِ منّـي ودمـع العينِ يطّرِد اطرادا
خُذي للهـول عدتَـه بحزمٍ ستَلْقَـي ما سيمنَعك الرقادا
فإنك إن بقيـت رأيـت أمراً يطيلُ لك الكآبـةَ والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأيٍ بقسمته الخلافـةَ والبـلادا
رأى ما لـو تعقبـه بعلْـمٍ لبيض من مفارقـه السوادا
أراد به ليقْطَـع عـن بنيـه خلافَهم ويبتذلـوا الـودادا
فقد غَرس العـداوةَ بين آلٍ وأورثَ شَملَ أُلْفَتهـم بِدادا
وأَلْقَح بينهم حربـاً عوانـاً وسلس لاجتنابهـم القيـادا
فويلٌ للرعيـة عن قليـلٍ لقد أهدى لها الكُرب الشدادا
وألبسها بلاء غيـر فـانٍ وألْزمها التضعضع والفَسادا
ستجري من دمائهم بحور زواخر لا يرون لهـا نَفَادا
فوِزر بلائِهم أبـداً عليـه أغيـاً كان ذلك أم رشـادا

والقصيدة، كما هو واضح، مثقلة بالمعجم الدلالي للغم والهم والفزع والدم الذي حمل البيت الأول منها "شيفرته"، ثم توزع في شرايين القصيدة كلها، فلم يخل بيت من هول أو كآبة، أو سهاد، أو سواد، أو بداد، أو حرب عوان، أو ويل وكرب... الخ. وهو يستهجن أن يكون شخص مهذب، بدلالة التهذيب السياسية، كالرشيد هو سبب ذلك كله، ولا يدفع عن هذا المهذّب كونه فعل ذلك حباً لبنيه، كأنه يقول إن سياسة الناس يجب أن تكون فوق العلاقات الشخصية، والمصالح الذاتية.

وفي ديوان الرشيد أبيات تعزى إليه تظهره نادماً على ما صنع، فهو يخشى أن يتصدع بنيان دولته التي أحكم بناءها، ولكنه يبدو يائساً من إمكانية التراجع عن ذلك القرار، يقول[73]:

لقد بان وجه الرأْيِ لي غير أنني غُلبتُ على الأمرِ الذي كان أحزما
فكيفَ يرد الدر في الضرعِ بعد ما تُوزع حتّى صـار نهبـاً مقسما
أخافُ الْتواء الأمر بعد استوائِه وأن ينقَض الحبلُ الذي كان أُبرِما

والأبيات تعبير صادق عن حالة الندم التي عايشها الرشيد، وعن يأسه من إمكان تدارك ما فات، والصور على ابتذالها لكثرة ما تداولها الشعراء، تظل مؤتلفة مع الحالة الشعورية للقائل.

2- الشعر في تعيين كبار الموظفين:

أشاد العدد الأكبر من شعراء الرشيد بحنكته وبعد نظره في اختيار المحنكين وأصحاب الكفايات من الوزراء والقادة العسكريين، وفاز البرامكة بالنصيب الأوفى من هذه الإشادة[74]، وسأكتفي بمثلين اثنين على هذا الجانب، الأول: إشادة مروان بن أبي حفصة بالفضل بن يحيى البرمكي الذي استعمله الرشيد في إخماد ثورة يحيى بن عبد ا بن الحسن العلوي الذي كان خرج في الديلم سنة 176هـ، فقال في ذلك[75]:

ظفرتَ فـلا شُلّت يـد برمكيـةٌ رتَقْتَ بها الفتْقَ الذي بين هاشـمِ
على حين أعيـا الراتقين الْتئامه فكفـوا وقالـوا ليـس بالمتلائـم
فأصبحتَ قد فازت يداك بخُطة من المجد باق ذكْرها في المواسم
وما زال قدح الملْك يخْرج فائزاً لكم كُلّما ضمتْ قـداح المساهـمِ

وواضح مدى إعجاب الشاعر بالفضل البرمكي الذي حسم النزاع بين أبناء هاشم في الوقت الذي عجز غيره عن صنعه، وهو من وجه آخر إعجاب بالخليفة الذي أحسن حين عهد لهذا البرمكي أن يسوي ذلك الخلاف. وصور الشاعر هنا مستقاة من البيئة العربية وتراثها: الفتق والرتق، والمواسم، والقدح الفائز، وقداح المساهم، وإن أخرجها من سياقاتها الاجتماعية إلى دلالات سياسية.

والمثال الثاني، إشادة أشجع السلمي بجعفر بن يحيى البرمكي[76] الذي اعتمد عليه الرشيد في القضاء على الفتنة بين القيسية واليمنية في الشام. ويظهر أن تلك الفتنة استحكمت شرارتها، وعمت شرورها، فكان جعفر الذي

اختاره "الرضا هارون خير خليفة"، هو الذي حسم الفتنة[77]:

نظرتَ لأهل الشّام لما تعاظَمتْ
ظُلامتُهم حتّى علا الحق باطلُـه

فولّيتَ من لا يملأُ القـولُ قلْبه
إذا اختلَجتْ نفس الجبان بلابلُـه

والعجيب في علاقة الرشيد بالبرامكة – وهي علاقة شائكة في منتهاها – أن نجد شاعراً غير مسمى يحذّر في قصيدة له الرشيد من مغبة الاطمئنان إلى البرامكة، فيضع يده على جملة من التصرفات كان البرامكة فيها يتطاولون على دولة الرشيد، وسلطان الخليفة، يقول هذا الشاعر[78]:

قـلْ لأمين الله فـي أرضـه
ومن إليـه الحل والعقْد

هذا ابن يحيى قد غدا مالكـاً
مثْـلَك، ما بينكُمـا حد

أمـرك مـردود إلى أمـره
وأمـره ليس لــه رد

وقد بنى الدار التي ما بنى الـ
فُرس لها مثلاً ولا الهنْد

والدر والياقـوتُ حصباؤهـا
وتُربها العنْبـر والنـد

ونحـن نخْشـى أنّـه وارث
ملْكك إن غيبك اللّحـد

ولن يباهي العبد أربابـه
إلاّ إذا مـا بطر العبـد

ومرة أخرى تثير هذه القصيدة تساؤلات، أولها عدم ذكر قائلها، والمظنون أن صاحبها خشي على نفسه فأشاع القصيدة، وكتم الاسم، لأن المهم عنده أن يصل مضمونها إلى الخليفة. والثاني، انكشاف مضمون الرسالة، القصيدة انكشافاً عجيباً حتى لكأن قائلها من جمهور المتأدبين صاغ رؤيته في قوالب شعرية حسب، ولم يلتفت إلى جماليات الشعر وأساليبه. وثالثها، معرفة هذا القائل وتفطنه إلى ما يستثير في الرشيد كل مكامن الاستثارة على البرامكة، من تصرف في أموال الدولة، وبناء الدور الفخمة، وتسيير شؤون الحكم دون الرجوع إلى الخليفة، وهي أمور تنبئ عن أطماع سياسية خطيرة في أن تصير الخلافة للموالي دون العباسيين الهاشميين.

وأشاد مسلم بن الوليد بحسن صنيع الرشيد في اتخاذ يزيد بن مزيد الشيباني قائداً لجنده في الثغور، وأعاد القول في ذلك مراراً، وسمى يزيد سيفاً من سيوف الخليفة ونابه، فقال[79]:

* ناب الإمام الذي يفْتَر عنه إذا
ما افْترت الحرب عن أَنْيابها العصل

* سلّ الخليفةُ سيفاً من بني مطَرٍ
يمضي فيخترقُ الأجسـاد والهامـا

وحين تولى إدريس الشماخ اليماني الرافضي[80]، على بريد بنواحي إفريقية/ تونس، من قبل إبراهيم بن الأغلب، عامل الرشيد على إفريقية أساء للناس، وخرج على الخليفة فتهدده شاعر، قال عنه الطبري: "أظنه الهنازي"، فقال[81]:

أتَظن يا إدريس أنـك مفلـتٌ
كيد الخليفة أو يقيـك فـرار

فَلَيدركنك أو تَحـل ببلْـدة
لا يهتدي فيـها إليك نهـار

إن السيوفَ إذا انْتَضاها سخْطُه
طالتْ وقصر دونها الأعمار

ملك كأن الموتَ يتْبع أمـره
حتى يقالَ: تُطيعه الأقْـدار

والأبيات إعجاب كبير بالرشيد في اقتداره على خصومه، فلا منجاة للخارج منهم عليه؛ فَظن إدريس بأن يفلت من كيد الخليفة أو يفر يردفُ في البيت بعده بتوكيدين بحتمية أن يدرك هذا العاصي "فليدركنك"، وهذان التوكيدان – القسم ونون والتوكيد الثقيلة – مردوفان بإقرار مسلّمة حملها البيت الثالث المصدر بـ "إن" التوكيدية أيضاً، وعززها البيت الرابع الذي يجعل الموت يأتمر بأمر الرشيد، والأقدار تطيعه، فملكت على هذا الخارج العاصي الأرض من أقطارها بهذا التناص الضمني مع قوله تعالى عن المنافقين: "**قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً. قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً**". (سورة الأحزاب: 16-17).

ومع ذلك كله لم يسلم بعض موظفي الرشيد من الانتقاد والتجريح، ومصداق ذلك هذه الأبيات التي نظمها محمد بن مناذر في خالد بن طليق الذي كان الرشيد جعله قاضياً على البصرة، وهي تقوم على المفارقة اللطيفة، والسخرية الشديدة اللاذعة، يقول ابن مناذر فيها[82]:

قل لأميـرِ المؤمنين الـذي
من هاشمٍ في سرها واللباب

إن كُنْـتَ للسخْطة عاقبتَـنا
بخالد فهـو أشَـد العقـاب

كان قُضاةُ الناس فيما مضى
من رحمة الله، وهذا عذاب

يا عجبي من خالد كيـف لا
يغْلَطُ فيـنا مرةً بالصـواب

د – الأشعار في استعطاف الرشيد وانتقاده:

تدخل الأشعار التي قيلت في استعطاف الرشيد في باب المدح أيضاً؛ لأن الشعراء الذين استعطفوه كانوا يعيدون القول في تعداد صفاته، ولم يتجاوزوا تلك الصفات إلا في تركيزهم على إظهار صفة الرحمة، وهم لذلك يطمعون في عفوه، ويقرون بذنوبهم، أو يتنصلون منها، يقول أبو نواس في هذه المعاني مجتمعة(83):

يعفْوك بل بجودك عذْتُ لا بل ... بفضلك يا أمير المؤمنينا
فـلا يتعـذرن علّـي عفْـو ... وسعتَ به جميع العالَمينا

ثم يعرج الشاعر على صفات الرشيد فيقول:

براك ا ُ للإسلام عـزاً ... وحصناً دون بيضته حصينا
لقد أرهبتَ أهلَ الشرك حتّى ... تَركْتَهـم ومـا يتَذَمرونـا
تزورهم بنَفْسك كـل عـامٍ ... زيارةَ واصـلٍ للقاطعيـنا

وبعد أن يشبع الشاعر ممدوحه ثناء، يعاود القول في "قصته" ليكون التأثير في نفس الرشيد أوقع فيقول:

فَشفع حسن وجهك في أسيرٍ ... يدين بحبك الرحمن ديـنـا

ويختم القصيدة ببيت يستل به من الخليفة عين الرضا عنه، والإقرار بالإيجاب بأن نعم، ليس لجار مثلي أن يهون حين يقول:

إذا ما الهون حل بدارِ قومٍ ... فليس لجارِ مثْلك أن يهونـا

ونجد في قصيدة استعطاف نظمها علي بن الخليل في الرشيد منحى آخر؛ إذ كان جزؤها الأكبر ومن البيت الأول فيها ينصب على بيان فضائل الخليفة التي لا يدانيه فيها أحد، فهو "خير البرية" و"بر السريرة طاهر النفس"(84):

من عتْرة طابـتْ أرومتُـهم ... أهل العفَاف ومنتهـى القُدسِ
نُطُق إذا احتُضرتْ مجالِسهم ... وعن السفاهـة والخَنَا خُرسِ

ومرة أخرى أقول: بعد أن أشبع الشاعر ممدوحه ثناء، عرض قصته، فبرأ نفسه مما رمي به من زندقة، ثم قال إنه يضع نفسه تحت تصرف هذا البار الرحيم بعد أن استخار ا ، وتوكل عليه. وهذه فطنة من الشاعر معجبة تحقق إيمانه، وتنفي عنه التهمة، يقول في ذلك كله(85):

إنّي إليك لجأتُ من هربٍ ... قد كـان شردني ومن لبس
واخترتُ حكْمك لا أجاوزه ... حتى أُوسد في ثَرى رمسي
لما استخرتُ ا َ في مهلٍ ... يممتُ نحوك رحلَـةَ العنْسِ
كم قد قطَعتُ إليك مدرِعاً ... ليـلاً بهيم اللـونِ كالنقْسِ
إن هاجني من هاجسٍ جزع ... كان التوكلُ عنده تُرسي

فرحلة الخوف التي عايشها الشاعر انتهت بصلاة الاستخارة والتوكل على ا بأن يعوذ بحمى الخليفة المؤمن العفو، فما كان من الرشيد إلا أن أطلق سراحه.

وأكثر أبو العتاهية من النظم في استعطاف الرشيد حين حبسه، وهو في جل هذا الشعر يركز على التزهيد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها كدأبه في أكثر شعره، غير أن له نصاً نجده يتجرأ فيه على الرشيد فينعته بالظالم ويحذره من مغبته حين يلقى ا ، وقد بدأ الشاعر قصيدته بمطلع عنيف، أعقبه أبيات لا تقل عنها تعنيفاً، ولكنه ختمها مرققاً من لهجته لأن تخليص الشاعر مما هو فيه من ظلم، تخليص للرشيد من حساب يوم عظيم، يقول في هذا كله(86):

أما وا ، إن الظلْم لُـوم ... وما زال المسيء هو الظلُوم
إلى ديانِ يوم الدين نمضي ... وعند ا ِ تجتمع الخصـوم

ثم يقول في ختامها:

ألا ياأيـها الملك المـرجى ... عليه نواهض الدنيا تَحـوم
أقلْني زلـةً لـم أجرِ منها ... إلى لُومٍ وما مثلـي ملـوم
وخلصني تُخَاص يوم بعث ... إذا للنّـاسِ برزت الجحيـم

والعجيب أن يقول أبو الفرج تعليقاً على القصيدة: "فرق له، وأمر بإطلاقه"(87):

ويبدو لي أن قصيدة أبي العتاهية التي منها قوله(88):

من مبلغٌ عني الإمـ ـام ... نصـائحـاً متَواليـ ـةْ
إني أرى الأسعار ... أسـعار الرعية غاليـةْ

وأرى المكاسب نزرةً
وأرى الضرورة فاشيـةْ
وأرى اليتامى والأرا
ملَ في البيوت الخاليـةْ
من يرتَجى للناس
غَيرك للعيونِ الباكيـةْ؟

هي قصيدة يخاطب الشاعر فيها هارون الرشيد، فالرشيد – المولى في هذه القصيدة – هو أكثر الخلفاء العباسيين الذين اقترن اسم أبي العتاهية به. وجاء بين يدي القصيدة في ديوان الشاعر ما يلي: "قال يصف صروف الزمان ويستغيث الخليفة"[89]، والخليفة الذي أكثر الشاعر من الاستغاثة به هو الرشيد. وعليه فإنه لو صدق حدسنا هذا لقلنا: لعل هذه القصيدة هي التي أغضبت الرشيد، ودفعته إلى حبس الشاعر لما فيها من انتقاد شديد له لإهماله شؤون رعيته من عامة الناس، وتسقط تبعاً لذلك أقوال أبي الفرج الأصفهاني الواهية في غضب الرشيد على الشاعر وحبسه إياه؛ لأنه انصرف عن الغزل إلى الزهد[90].

وأجمل قصيدة استعطاف وقفنا عليها هي القصيدة التي نظمها كلثوم بن عمرو العتّابي وتبدو براعة الشاعر فيها من هذا الإحكام في البناء، حتى غدت كأنها جملة شعرية واحدة متلاحمة النسج، فجاء الحقل الدلالي تتنازعه بقوة عاطفتا الخوف والرجاء، أو اليأس والأمل وقد توزع اليأس ومرادفاته في دائرة سوداوية مكتظة باللوعة، والذل، والهجران، والخوف واليأس، والزلات، والإقصاء، والجدب، والنضوب، والكدر، والردى، والقيد، والدم، والقبض على القاضب المصقول الذنابين. ويعلو تلك الدائرة فضاء الممدوح، ويصل بين تلك الدائرة وهذا الفضاء درب ضيق تنفذ منه آمال الشاعر التي تتخذ من قديم الود بين الرجلين زادها الآني، وتعول عليه في الخلاص: فوادي الممدوح رحب المشارب، وهو حصن الشاعر الذي كان يلوذ به ويحتمي، وسيظل؛ فممدوحه غافر الذنب، لأن راجيه محب له. يقول العتابي[91]:

جعلْتُ رجاء العفو عـذْراً وشبتُه
بهيبة إمـا غافـرٍ أو معاتـبِ
وكنْتُ إذا ما خفْتُ حادث نبـْوة
جعلْتك حصناً من حذار النوائبِ
فأنْزلَ بي هجرانُك اليْأس بعد ما
حللْتُ بواد منْك رحبِ المشارب
أَظَل ومرعـاي الجديب مكانَـه
وآوي إلى حاقّات أكْدر ناضبِ
ولم يثْنِ عن نفسي الردى غير أنّها
تَنوء بباق من رجائِـك ثائِـبِ
هي النفس محبوس عليك رجاؤها
مقيدةُ الآمـال دون المطالـبِ

إلى أن يقول:

فها أنا مقْصى من رضاك وقابض
على حد مصقول الذنابين قاضب
ومنْتزع عما كرهـتَ وجاعـلٌ
هواك مثالاً بين عيني وحاجبـي

ومن غير شك ان شخصاً يتخذ ممدوحه مثالاً/ نُصباً/ بين عينه وحاجبه لمحب مخاص، ومن غير شك ان مثل هذا الشعر يؤثر جداً في نفس الخليفة، ومن غير شك أيضاً ان هذه النزعة من التدقيق في المعاني كانت وليدة ثقافة اعتزالية عرف بها صاحبها، فأثمرت مثل هذا الشعر الجميل الدقيق المعاني.

ثانياً: الأشعار في رثائه وهجائه

أحب أن أذكر ابتداء أنني ضممت القول في هذين الغرضين الشعريين في مجموعة واحدة لقلة ما ورد فيهما من أشعار. ويلاحظ في الشعر الذي قيل في رثاء الرشيد أنه يتقاطع مع مدح الأمين وتهنئته بالخلافة، فهو لذلك شعر مجامل لا يكشف عن صدق في العواطف، ولا حرارة في التعبير، بل هو نظم يتقطر الافتعال فيه، ويطفو على سطحه دون مواربة فنية تستحق الإعجاب، ومن الأمثلة على هذا الضرب قول أبي الشيص الخزاعي[92]:

جرتْ جوارٍ بالسعد والنحسِ
فنحن في وحشة وفي أُنْسِ
العين تبكي والسن ضاحكةٌ
فنحن في مأتمٍ وفي عرسِ
يضحكُنا القائم الأمين
ويبكينا وفاةُ الإمام بالأمسِ

وشبيه بهذه الأبيات في الانفعال والتصنع في إظهار الحزن والفرح في آن معاً قول أشجع السلمي في مواساة لا حظ لها من الشعر وألقه[93]:

سحابةُ حزنٍ بعد هارون أطْبقتْ
فلما بـدا وجـه الأمين تجلـت
تحببت الدنيـا بملْك محمـد
وكانت بملْك المرتَضى قد تفلـت
لئن بكت الدنيـا عليه وأعولَتْ
فبالمصطفى عن كل ماضٍ تَسلت

ولعل أجمل مرثية نظمت في الرشيد هي المرثية التي قال فيها أشجع السلمي[94]:

رأيـتُ لداتي قـد مضـوا لسبيلهم
وإن بقـائـي بعدهـم لقلـيلُ
رأيتُ المنايا تصدع الصخْر والصفا
وتصدع صدر السيف وهو صقيلُ
كأن لم تَري هارون في ظل ملْكه
وتَسنمـه يـوم علـي ثقـيلُ
منازلُ هارون الخلافة أصبحتْ
لهن على شاطي الفرات عويـلُ
منازلُ أمستْ في السياق نفوسها
سلبن رداء الملْك وهو جميلُ[95]
لبسن حلي الملْك ثـم سلبنـها
فهن، ولا حلْـي لهن، عطـول

وموطن الجمال في هذه الأبيات مرده هذه النزعة الفلسفية غير المرهونة بموت الرشيد، وإن كانت منطلقة منها، فمد الشاعر أنظاره إلى آفاق إنسانية ترى في الموت لغزاً محيراً مقلقاً، وقوة لا تقاوم. ينضاف إلى ذلك هذا التكرار:/ رأيت ورأيت/ تصدع وتصدع/ منازل ومنازل/ سلبن سلبن، كأن الرجل في مجلس نياحة فيردد كترديد النائحات إشعاراً بعظم الفقْد، وحزن الفاقد مع ما وشح ذلك من صور للتقابل بين أمس واليوم. ويتراءى الرشيد بعد هذا كله جديراً بأن يعول عليه شاطئ الفرات، وأن تبكيه منازل سلبت منها أبهة الملْك ورداؤه الجميل.

وأما شعر الهجاء في الرشيد، فلم نعثر منه على غير أبيات جاءت في ثنايا قصيدة نظمها دعبل بن علي الخزاعي، في وصف ما أصاب آل البيت من مصائب، وتعداد لفضائل علي بن موسى الرضا[96]، الذي دفن بطوس، وهي المدينة التي توفي ودفن فيها هارون الرشيد من قبل، فقال دعبل في مقايسة بين القبرين وصاحبيهما[97]:

اربع بطوسٍ على قبـرِ الزكي بـها
إن كنْتَ تَربع من ديـنٍ على وطـرِ
قبرانِ في طوس: خير الناس كلهم
وقبر شرهـــم، هـذا من العبـــرِ
ما ينفَع الرجس من قُربِ الزكي ولا
على الزكي بِقُربِ الرجس من ضررِ
هيهات، كل امرئٍ رهن بما كسبتْ
لـه يداه، فخذْ مـا شئْـتَ أو فَـذَرِ

ومثل هذا الهجاء لا قيمة له فنياً؛ إذ استدعته وقفة الشاعر على مآثر العلويين ومقاتلهم، فأقام هذه المقايسة، ولم ينشئ القصيدة في هجاء الرشيد ابتداء، وقائلها علوي هجاء لا يعول على شعره في الحكم على خليفة عباسي سنّي.

الخاتمـــة

تبين لنا من هذه الدراسة أن عدد الشعراء الذين ارتبطوا بالرشيد كان كبيراً، وأن مقداراً غير قليل من الأشعار التي نظمت فيه سقطت من يد الزمن.

وتبين لنا كذلك حين عكفنا على استجلاء صورة الرشيد في تلك الأشعار أنه كان يحج عاماً، ويغزو عاماً، وأنه كان حريصاً على مصلحة رعيته، يرعاها، ويسهر على ثغورها وينتصر على أعدائها، وأنه كان متديناً، وأنه لم يكن يتوانى عن القضاء على خصومه الخارجين على ملكه في الداخل، فيسير إليهم خيرة قادته، ليعيدوا إلى الدولة العباسية هيبتها وإلى الرعية ائتلافها وأمنها، وأنه كان جواداً كريماً، ماهراً في السياسة، بصيراً بها، لم يشذّ عن ذلك في سياسته الداخلية والخارجية إلا ما كان منه في أخذ البيعة لثلاثة من أبنائه هم الأمين والمأمون والمؤتمن، وأنه كان حليماً يتجافى عن إساءات بعض المسيئين إليه، وأنه كان شديداً يأخذ من يتهدد دولته بتسيير الحملات للقضاء عليه، أو يسجنه حتى يموت.

كما تبين أن الشعراء ركزوا على صلته بآل النبي، عليه السلام، فأكدوا في أشعارهم حق العباسيين في الخلافة دون أبناء عمومتهم من العلويين، وكرروا القول في هذا وأعادوا.

وتبين لنا كذلك أن الأشعار التي نظمها فيه معاصروه كانت تتراوح بين التقريرية المباشرة، والتخييلة المصورة، وأن الشعراء الذين وصلت إلينا قصائدهم كاملة أو كالكاملة، كانوا يحرصون على احترام ذوقه في البناء التقليدي للقصيدة العربية فيفتتحونها بالنسيب والطلل، أو يوشحون قصائدهم بمطالع ذات ارتباط وثيق بالمعاني التي ينساح الشعراء فيها في بيان فضله وفضائله، وخصاله الحميدة التي تصوره النموذج الأسمى للحاكم المسلم.

ومع أن هذا يقال، فإن بعض الشعراء الذين مدحوه كانوا قدموا لقصائدهم بأبيات فيها قصف وخمر، وعزف ولهو، وكأن أمثال تلك القصائد كانت من جملة الأسباب التي أكدت شبهة عبثه التي لهج بها بعض المؤرخين وكتّاب التراجم والأدب.

وتبين لنا أخيراً أن الشعر الذي قيل في رثائه قليل، ويكاد ينعدم الشعر في هجائه إلا الأبيات التي نظمها دعبل بن علي الخزاعي، وهي في كل الأحوال ليست شيئاً، ولا تشكل ظاهرة.

ويظل الرشيد بعد ذلك كله إنساناً، وخليفة كبيراً بشهادات شعرائه الذين مدحوه، والذين استعطفوه، والذين انتقدوه. وما من شك في أن إعجاب الشعراء به هو الذي حفّز العماني الراجز إلى أن يقول في خلْقه وخلقه في آن(98):

جهير العطـاس شديـد النياط ... جهير الـرواء جهير النغَـم

ويخطو على الأينِ خطْو الظليم ... ويعلو الرجالَ بجسـمٍ عمـم

الهوامـش

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص572؛ المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص348؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج14، ص7-12؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج73، ص285-314؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص203، ج14، ص187-188؛ وانظر في أخبار أبي العتاهية فيه، ج1، ص1-109؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص456؛ ج4، ص48؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص287؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص250-259.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص26-29. وانظر في التعريف بالفُضيل المحدث العابد المتوفى سنة 187هـ/803م؛ الزركلي، الأعلام، ج5، ص153؛ وبابن السماك الذي وعظ الرشيد، وله موعظة في: ابن الأثير، الكامل، ج6، ص219؛ وبالعمري، عبد الرحمن بن عبد ا قاضي مصر زمن الرشيد المتوفى سنة 194هـ/810م، الأعلام، ج3، ص312؛ وبسفيان الثوري الذي كان سيد أهل زمانه في الدين والتقوى والمتوفى سنة 161هـ/778م، الأعلام، ج3، ص104.

(3) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج3، ص189؛ وانظر في التعريف بالعتابي الأصفهاني، الأغاني، ج3، ص109؛ وبالنمري، نفسه، ج3، ص14؛ وبأبي الشيص: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص721؛ وبمحمد بن مناذر، الأغاني، ج18، ص168.

(4) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص196.

(5) انظر في التعريف بإبراهيم الموصلي، الأغاني، ج5، ص18، 154، 265؛ وبداود بن رزين: الطبري، تاريخ، ج4، ص620؛ وبسلم الخاسر، الأغاني، ج19، ص260، وبأبان اللاحقي، الأغاني، ج23، ص155، وبعبد الملك بن صالح، الزركلي، الأعلام، ج4، ص159، وبالحجاج التّيمي، الطبري، تاريخ، ج4، ص669، وبأبي المعالي الكلابي، نفسه، ج4، ص677، وبصالح بن عبد القدوس، ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص90، وبالعماني الراجز، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص641، وبأبي الغول، ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص149، وبعمر بن سلمة، نفسه، ص150، وبنصيب الأصغر، الأغاني، ج23، ص1، وبالرقاشي: نفسه، ج16، ص245، وبدعبل، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص727، وبعلي بن الخليل، الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص174.

(6) انظر: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 276.

(7) انظر في التعريف به: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 276، الأصفهاني، محمد بن داود، الزهرة، ج2، ص643، خليل مردم بك، الشعراء الشاميون، ص276، ياسين عايش، الشعر في بلاد الشام والجزيرة، ص 310.

(8) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص80.

(9) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(10) المرجع نفسه، ص74.

(11) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص184.

(12) انظر: الحاجري، هارون الرشيد.

(13) انظر: أمين، هارون الرشيد، وضحى الإسلام، ج1، ص114.

(14) انظر: الجومرد، هارون الرشيد.

(15) انظر: أبو النصر، الهوى والشباب في عهد الرشيد.

(16) انظر: رضوان، أسرار الأمير العاشق.

(17) انظر: ضيف، العصر العباسي الأول، ص315-317، 339.

(18) انظر: الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، في تراجمه لمسلم بن الوليد، وأبي نواس، وأشجع السلمي، ومنصور النمري.

(19) انظر: عبد الرحمن، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ، ص 73، 75 - 77.

(20) انظر: الخواجة، إبراهيم، شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري، ص 234-237.

(21) انظر: الشتيوي، صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، دراسات، المجلد 29، ص 745.

(22) انظر: عايش، الشعر في بلاد الشام والجزيرة، ص136، 140، 172-173

(23) ضناوي، موسوعة هارون الرشيد.

(24) نفسه، ديوان هارون الرشيد.

(25) انظر: الطبري، تاريخ، ج4، ص 206-207، 572.

(26) انظر في المعركة وأخبارها: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 206؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص 184، 186، 196، وذكر ابن الأثير أن عقد الصلح ونقضه كان في سنة 187 هجرية، ثم كان الفتح الكبير سنة 190.

(27) انظر: الطبري، تاريخ، ج4، ص669؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص186.

(28) انظر: الطبري، تاريخ، ج4، ص670، والحوباء، النفْس، ومره العيون: تقرحها (لسان العرب).

(29) ديوان أبي العتاهية، ص65. وانظر في قصيدة أخرى له في هذه الغزوة، نفسه، ص489.

(30) ديوان أبي الشيص، ص92.

(31) انظر الحسون، أشجع السلمي، حياته وشعره، ص268.

(32) نفسه، ص 187. والأفلاء: جمع فـلْو وفُـلُو وهو الجحش أو المهر إذا فطم (لسان العرب).

(33) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص 140. ويزيد بن مزيد من شيبان، كان أحد أبرز القادة العسكريين زمن الرشيد، وكان ممدحاً. انظر في التعريف به: الزركلي، الأعلام، ج8، ص188. والصفصاف كورة من ثغور المصيصة. ياقوت، معجم البلدان.

(34) ديوان النابغة الذبياني، ص10، 12.

(35) انظر: العشّاش، شعر منصور النمري، ص82. ومضز إذا أَضز الفرس على فأس اللجام أي أزم عليه، وضيق فمه جداً، (لسان العرب).

(36) انظر في خبر هذا الفداء: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص193؛ وعطوان، شعر مروان بن أبي حفصة، ص60.

(37) انظر: شعر منصور النمري، ص95.

(38) انظر: الحسون، أشجع السلمي، ص252.

(39) انظر في ذلك تمثيلاً قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم التي مطلعها:

رقت حواشي الدهر فهي تَمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر

(40) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج18، ص 212-213.

(41) الحسون، أشجع السلمي، ص187.

(42) انظر في إبراز هذه الفكرة وتوكيدها في خطبة السفاح حين ولي الخلافة: صفوت، جمهرة خطب العرب، ج3، ص1.

(43) ديوان أبي نواس بتحقيق الغزالي، ص404.

(44) العشاش، شعر منصور النمري، ص85، والخوص جمع خوصاء، أراد إبلاً ضيقة العيون غائرتها. والجانفات، الجنف دخول أحد شقي الزور وميله عن الآخر (لسان العرب).

(45) انظر في التعريف بيحيى بن عبد ا العلوي، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص125، ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص194.

(46) شرح ديوان صريع الغواني، ص69.

(47) انجحروا: دخلوا في جحر تهويناً لمكانتهم، جلّى بخوف: طلع عليهم بخوف. مرصد: صاروا فرائس أسد يترصدهم.

(48) السبوح: الفرس السريع الذي يرى كأنه يسبح. تكنف عطفيها: أحاط جانبيه. الخَفَيدد: ذكر النعام، شرح ديوان صريع الغواني، ص77.

(49) معنى البيت: أنزلت بهذا الخارج الموت قبل أن تتواعده، ولم تمكنه من أن يقول في نفسه: عسى أن أنجو، وكأني قد نجوت.

(50) معنى البيت: صار هذا الخارج حين ينفرد بنفسه إذا حدثته بخير لم يقبل ذلك منها، ويتهم مناه.

(51) شرح ديوان صريع العواني، ص279.

(52) انظر هاتين القصيدتين: ديوان أبي نواس بتحقيق الغزالي، ص 398، 402.

(53) الحسون، أشجع السلمي، ص255.

(54) العشّاش، شعر منصور النمري، ص95.

(55) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص 184-185.

(56) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص111- 112.

(57) العشّاش، شعر منصور النمري، ص95.

(58) الغذامي، عبد ا ، القصيدة والنص المضاد، ص41.

(59) الأبيات من رائيته التي مرت الإشارة إليها.

(60) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص251.

(61) الطبري، تاريخ، ج4، ص625، وفي معجم البلدان ج1، ص321 لياقوت الحموي، بازبدى، وباقردى: كورتان متقابلتان في جزيرة ابن عمر، وبالقرب منهما جبل الجودي، وأثبت ياقوت البيتين.

(62) الحسون، أشجع السلمي، حياته وشعره، ص 193.

(63) انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص255.

(64) الطبري، تاريخ، ج4، ص626.

(65) نفسه، ص650.

(66) نفسه، ص651.

(67) نفسه، والصفحة نفسها.

(68) الغذامي، القصيدة والنص المضاد، ص 30، وانظر للمؤلف نفسه عن الجملة الشعرية أيضاً: الخطيئة والتكفير، ص104.

(69) الحسون، أشجع السلمي، حياته وشعره، ص257.

(70) ديوان أبي العتاهية، ص156؛ والقَعود، الناقة الفتية يقْعد

عليها، (لسان العرب).

(71) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص232.

(72) الطبري، تاريخ، ج4، ص651.

(73) ديوان هارون الرشيد، ص42، وذلك مع أن الصولي فيه ذكر أن الرشيد قال هذا الشعر ندماً على تقديم الأمين على المأمون.

(74) لمزيد من النظر في الشعر في الرشيد والبرامكة انظر: غوشة، الشعر في ظلال البرامكة.

(75) الطبري، تاريخ، ج4، ص629.

(76) لمزيد من التفصيل في أخبار هذه الفتنة التي عرفت بفتنة أبي الهيذام، التي نظم فيها شعر كثير، انظر: خليل، الشعر في بلاد الشام والجزيرة، ص127 وما بعدها.

(77) الحسون، أشجع السلمي، ص242.

(78) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص335.

(79) شرح ديوان صريع الغواني، ص7، ص63.

(80) الطبري، تاريخ، ج4، ص600.

(81) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(82) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص121.

(83) ديوان أبي نواس، ص403.

(84) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص175.

(85) نفسه، ص177. والعنْس في الأبيات: الناقة القوية. والنقْس: المداد، شبه به الليل لسواده (لسان العرب).

(86) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص69.

(87) نفسه، والصفحة نفسها.

(88) ديوان أبي العتاهية، ص485.

(89) نفسه، والصفحة نفسها.

(90) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص69.

(91) الحصري، زهر الآداب، ج3، ص678.

(92) الجبوري، ديوان أبي الشيص وأخباره، ص68.

(93) الحسون، أشجع السلمي، ص194. وانظر أمثلة أخرى على هذا الشعر فيه، ص58، وابن المعتز، طبقات الشعراء، ص151، 152، وأبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص198، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص341، والجبوري، ديوان أبي الشيص وأخباره، ص84.

(94) الحسون، أشجع السلمي، ص245.

(95) السياق، الاحتضار (لسان العرب).

(96) علي بن موسى الرضا هو ثامن الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، زوجه المأمون ابنته وعهد إليه بالخلافة، غير أنه مات في خلافة المأمون، فدفنه إلى جانب أبيه بطوس وذلك سنة 203هـ/818م. انظر: الزركلي، الأعلام، ج5، ص26.

(97) انظر القصيدة كاملة في: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، ص76-77.

(98) ضنّاوي، ديوان هارون الرشيد، ص11.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، عز الدين علي، الكامل في التاريخ، 1995، ط 6، دار صادر، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، 1960، مطابع دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، 1968، دار صادر، بيروت.

ابن الطقْطقي، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت.

ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمروي، 2001، دار الفكر، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد ا بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت.

ابن المعتز، عبد ا ، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط 3، دار المعارف بمصر.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم: لسان العرب.

أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، ديوان أبي العتاهية، 1980، دار صادر، بيروت.

أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، حققه أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت.

الأصفهاني، أبو الفرج علي، الأغاني، دون تاريخ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.

الأصفهاني، محمد بن داود، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، 1985، ط2، مكتبة المنار.

أمين، أحمد، 1951، هارون الرشيد، دار الهلال، مصر.

أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محيي عبد الحميد، 1979، دار الكتب العلمية، ودار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

الجبوري، عبد ا ، 1984، ديوان أبي الشيص الخزاعي

وأخباره، المكتب الإسلامي بيروت، دمشق.
الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقّا وزميليه، 1938، ط 1، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
الجومرد، عبد الجبار، 1999، هارون الرشيد، ط1، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت.
الحاجري، طه، 1948، هارون الرشيد، دار المعارف بمصر.
الحسون، خليل بنيان، 1981، أشجع السلمي حياته وشعره، ط 1، دار المسيرة، بيروت.
الحصري، إبراهيم علي، زهر الآداب، تحقيق زكي مبارك، 1972، دار الجيل، بيروت.
الخزاعي، دعبل بن علي، ديوان دعبل بن علي، شرحه حسن محمد، 1994، دار الكتاب العربي، بيروت.
الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، 1997، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت.
خليل، ياسين عايش، 1993، الشعر في بلاد الشام والجزيرة، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت.
الخواجة، إبراهيم، 1984، شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري، ط1، الكويت.
الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، 1983، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت.
رضوان، محمد، 1998، أسرار الأمير العاشق، ليالي هارون الرشيد بين الأسطورة والواقع، مركز الراية، القاهرة.
الزركلي، خير الدين، 1984، الأعلام، ط 6، دار العلم للملايين، بيروت.
السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، باعتناء محمود رياض حلبي، 1997، ط3، دار المعرفة، بيروت.
الشتيوي، صالح، 2002، صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد 29، العدد3.
الشكعة، مصطفى، 1980، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت.
صريع الغواني، مسلم بن الوليد، شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف بمصر.
صفوت، أحمد زكي، 1933، جمهرة خطب العرب، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
ضنّاوي، سعدي، 1998، ديوان هارون الرشيد، ط 1، دار صادر، بيروت.
ضنّاوي، سعدي، 2001، موسوعة هارون الرشيد، ط 1، دار صادر، بيروت.
ضيف، شوقي، 1966، العصر العباسي الأول ط 6، دار المعارف بمصر.
الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، 1991، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت.
عبد الرحمن، نصرت، دون تاريخ، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ، مكتبة الأقصى، عمان.
العشّاش، الطّيب، 1981، شعر منصور النمري، دار المعارف للطباعة، دمشق.
عطوان، حسين، 1973، شعر مروان بن أبي حفصة، دار المعارف بمصر.
الغذامي، عبد ا ، 1994، القصيدة والنص المضاد، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.
الغذامي، عبد ا ، 1985، الخطيئة والتكفير، ط 1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية.
غوشة، عصمة، 1975، الشعر في ظلال البراكمة، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة.
مردم بك، خليل، الشعراء الشاميون، تحقيق عدنان مردم بك، دار صادر، بيروت.
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1987، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح كرم البستاني، 1960، دار صادر، بيروت.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

Haroon Al-Rashid in the Poetry of the Poets of his Time

Yaseen AyeshKhalil *

ABSTRACT

This study aims to explore the way the great Abbasid Calif, Haroon Al-Rashid was perceived, described and depicted in the poetry of a number of poets who lived in his time. His palace in Baghdad or Baqqa attracted a great number of poets who praised his piety, courage, achievements and military conquests. They also praised his wise policies in dealing with internal mattars, his notable generousity and his noble ancestry which goes back to the family of the Prophet.

Their poetry was structured in congruence with the thematic contents. Some, however, maintained traditional forms to satisfy Al-Rashid’s poetic expectations.

Most of this poetry revolved around the theme of praising the perceived virtues of Al-Rashid.

However, he did not escape some criticism of some of his policies as depicted in some of the related poetry.

When he died, some poets expressed sorrow and grief in their poems, although these did not represent the same artistic standard as those which praised his virtues and achievements.

* Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 29/3/2004 and Accepted for Publication on 25/7/2004.